

الفصل الحادى والثلاثون

دفن الرسول ﷺ

اختلاف المسلمين هل مات محمد ﷺ - عمر يخطب الناس بأنه لم يمت - أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات ويتلو عليهم القرآن - اقتناع المسلمين بقول أبي بكر - خوف الاختلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين - بيعة السقيفة، ثم البيعة العامة لأبي بكر - تجهيز النبی وغسله - مرور الناس به رجالا فساء فصيانا - دفنه حيث قبض - إنفاذ جيش أسامة إلى الشام وانتصاره - آخر ما قال الرسول ﷺ.

ذهول المسلمين لخبر الوفاة وعمر يكذب الوفاة:

اختار النبي ﷺ الرفيق الأعلى في بيت عائشة ورأسه في حجرها، فوضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم وتضرب وجهها مع النساء اللاتي أسرعن إليها لأول ما بلغهن الخبر. وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجة؛ لأنهم رأوا النبي في الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفي، مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه بنت خاتمة بالسج. لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبي وهو لا يصدق أنه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به: فحسبه في غيبوبة لا بد أن يفيق منها. وعبثاً حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة؛ فقد ظل مؤمناً بأن محمداً لم يمت فلما ألح المغيرة قال له: كذبت. وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقتطن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات». واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم في حال أشبه شيء بالذهول، ألا إن كان محمد قد مات حقاً فواخر قلباه؟ وبالله الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له، وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق، هم يذهلون القلب ويذهب باللب. وإن كان محمد قد ذهب إلى ربه، كما يقول عمر، فذلك أدعى للذهول؛ وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشد إمعاناً في العجب. لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله لم يمت. وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يروونه وسمعون إلى صوته الجهوري وإلى دعائه واستغفاره! وكيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته، وقد دانت له العرب كلها، وبقي أن يدين له كسرى وأن يدين له هرقل بالإسلام! وكيف يموت وهو هذه القوة التي هزّت العالم مدى عشرين سنة متوالية، وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ! لكن النساء هناك ما زلن يلتدمن ويضربن وجوههن علامة

أنه مات. ولكنَّ عمرَها هنا في المسجد ما فتى ينادى بأنه لم يمِت، ويأته ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون؛ هؤلاء المنافقون الذين سيضرب محمد أيديهم وأعناقهم بعد رجوعه. أى الأمرين يصدّق المسلمون؟ لقد أخذهم الفزع أول الأمر، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبی حتى كادوا يصدّقون أمانيتهم، ويصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

مجيء أبي بكر من السنع:

وإنهم لذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السنع وقد بلغه الخبر القادح. وبصر بالمسلمين ويعمر بخطبهم، فلم يقف طويلاً ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل، فقيل له: لا حاجة لأحد اليوم بإذن. فدخل فألقى النبيّ مسجى في ناحية من البيت عليه بُرد حبرة^(١)، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً! ثم إنه أخذ رأس النبي بين يديه وحقق في معارف وجهه التي بقيت لم يُنكرها عدوان الموت عليها، وقال: بأبي أنت وأُمي! أمّا المَوْتَةُ التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تُصيّك بعدها مَوْتَةٌ أبداً. ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردّ البرد على وجهه وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويُقنعهم بأن محمداً لم يمِت. وفسح الناس لأبي بكر طريقاً. فلما دنا من عمر ناداه: على رِسْلِكَ يا عمر! أنصت! لكن عمر أبى أن يسكت أو يُنصت واستمر يتكلم. فأقبل أبو بكر على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم. ومن كآبي بكر في هذا المقام؟! أليس هو الصديق صَفِيُّ النبي ومن لو اتخذ خليلاً لاتخذة خليلاً؟! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات:

لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَتُؤْمِنُونَ أَنَّهُ قَتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢).

وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبي بكر، فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرَّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه موقناً أن رسول الله قد مات. وأمّا الناس فقد أخذوا من قبل بأقوال عمر، حتى لقد ألقوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت. وكذلك زایل القلوب كل شك في أن محمداً ﷺ قد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد ضمّه إليه.

(١) برد حبرة (بالوصف وبالإضافة): برد يمان موسى مخطوط.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤.

أفحات محمد ﷺ حقاً:

أفكان عمر غالباً حين اقتنع بأن محمداً ﷺ لم يمت، وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟ كلا! وإن العلماء ليحدثونا اليوم بأن الشمس ستظل تنائر على حقب الدهور حتى يجيء يوم تفتى فيه. أفيصدق أحد هذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك في إمكانه؟ هذه الشمس التي ترسل من ضيائها ومن حرارتها ما يحيا العالم به، كيف تفتى وكيف تنطفئ ثم يبقى العالم بعدها يوماً؟ ومحمد لم يكن أقل من الشمس ضياء، ولا حرارة، ولا قوة. وكما أن الشمس مُحسِنَةٌ، فقد كان محمد محسناً. وكما أن الشمس تتصل بالكائنات كلها، فقد كان روح محمد يتصل بالكائنات جميعاً، وما زال ذكره ﷺ يعطر الكون كله. فلا عجب إذا اقتنع عمر بأن محمداً لا يمكن أن يموت. وهو حقاً لم يمت ولن يموت.

رجوع الجيش إلى المدينة:

وكان أسامة بن زيد قد رأى انبيى ﷺ صباح ذلك اليوم حين خرج إلى المسجد وظن كما ظن المسلمون جميعاً أنه تعافى، فذهب ومن كان قد عاد إلى المدينة من الجيش المسافر إلى الشام ولحق بالعسكر بالجرف، وأمر الجيش بالتجهز للمسير. وأنه لذلك إذ لحق به الناعي نذيراً بوفاة النبي ﷺ، فعاد أدراجَه وأمر الجيش فرجع كله إلى المدينة؛ ثم ذهب هو فركز علمه عند باب عائشة، وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد.

في سقيفة بنى ساعدة:

وفي الحق أن المسلمين كانوا من أمرهم في حيرة. فهم لم يلبثوا حين سمعوا أبا بكر وحين أيقنوا أن محمداً قد مات، أن تفرقوا، فانهاز حى من الأنصار إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بنى ساعدة، واعتزل على بن أبي طالب والزبير بن العوام رطلحة بن عُبَيْد الله في بيت فاطمة، وانهاز المهاجرون ومعهم أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ في بنى عبد الأشهل إلى أبي بكر. وإن أبا بكر وعمر لذلك إذ أتى آت ينبئها نبياً الأنصار الذين انهازوا إلى سعد بن عُبادة، ثم يُردف النبأ بقوله: فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفارق أمرهم، ورسول الله ﷺ في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر موجهاً حديثه إلى أبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. وإنهم نفى طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان، فذكرا للمهاجرين ما تمالأ عليه القوم وسألاههم: أين يريدون؟ فلما علموا أنهم يريدون الأنصار قالوا: لا عليكم ألا تفرّبوهم؛ يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم. قال عمر: والله لنأتينهم. وانطلقوا حتى نزلوا بهم في سقيفة بنى ساعدة فإذا بين ظَهْرَانِيَهُمْ رجل مزمل. قال عمر بن الخطاب: مَنْ هذا؟ قالوا: سعد بن عُبادة، به رجع. فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم

قال: أمّا بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دَقَّتْ دَافَّةٌ من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويفضبونا الأمر.

مقالة أبي بكر للأنصار:

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبي ﷺ. لذلك لم يكد عمر يسمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه: فأمسك به أبو بكر مخافة شدته وقال: على رُسلك يا عمر! ثم قال موجهاً كلامه للأنصار: «أيها الناس! نحن المهاجرين أوّل الناس إسلامًا، وأكرمهم أحسابًا، وأوسطهم دارًا، وأحسنهم وجوهًا، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رَجْمًا برسول الله ﷺ: أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ»^(١).

بيعة أبي بكر بالسقيفة:

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار؛ إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفیء، وأنصارنا على العدو. وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعًا. فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش. فَمِنَّا الْأَمْرَاءُ وَمِنكُمْ الْوُزَرَاءُ. هناك استشاط أحد الأنصار غضبًا وقام فقال: «أنا جُدَيْلُهَا»^(٢) المحكك، وعُدَيْقُهَا الرَّجَبُ. منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش». قال أبو بكر: بل منّا الْأَمْرَاءُ وَمِنكُمْ الْوُزَرَاءُ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح وهو جالس بينهما. هنالك كثر اللفظ وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف؛ فنادى عمر بصوته الجهورى: ائْسُطْ يدك يا أبا بكر. فبسط أبو بكر يده فبايعه وهو يقول: «ألم يأمرك النبي ﷺ بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين! فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله ﷺ - منا جميعًا». ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبرة حقًا عما ظهر من إرادة النبي ﷺ حتى هذا اليوم الأخير الذى رآه الناس فيه، ففضى ذلك على ما بينهم من خلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار.

البيعة العامة بعد بيعة السقيفة:

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر، وتقدم ابن الخطاب فتكلم قبل أبي بكر

(١) سورة التوبة آية ١٠٠.

(٢) الجدیل: تصغير الجدل وهو أصل الشجرة. والمحكك: الذى تتحرك به الإبل الجري. والعديق: تصغير العديق (يفتح العين) وهو النخلة. والمرجب: الذى جعل له رجة وهى دعامة تنبى حوله من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت فغمرها عليها أن تنقر من الرياح انعواصف. يريد أنه قد جربت الأمور وله رأى وعلم يشتفى بها، كما تشتفى الإبل الجري باحتكاكها بالجدل.

فَهِمِدَ اللهَ وَأَتَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ عَمَّا وَجَدْتَهَا فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهْدَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَلَكِنِّي قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ سَيَدُّرُ أَمْرُنَا وَيَقِي لِيَكُونَ آخِرَتَنَا. وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُمْ كِتَابَهُ الَّذِي يَهْدِي رَسُولَهُ. فَإِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَذَاكَمَ اللهُ لَمَّا كَانَ هِدَاةً لَهُ. وَإِنَّ اللهَ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، فَقَوْمُوا فَبَايَعُوهُ». فَبَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرَ الْبَيْعَةَ الْعَامَّةَ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ.

خطاب أول الخلفاء الراشدين:

وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ أَنْ تَمَّتِ الْبَيْعَةُ فَأَلْقَى فِي النَّاسِ هَذَا الْخُطَابَ الَّذِي يَعْتَبَرُ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْحِكْمَةِ وَفَصْلِ الْخُطَابِ. قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَتَى عَلَيْهِ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ وَلَيْتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ. فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوْمُونِي. الصَّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ. وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أَرْيَحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى أَخْذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللهُ. لَا يَدْعُ قَوْمَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا ضَرِيحُ اللهِ بِالذَّلِّ، وَلَا تَشِيْعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَهُمُ اللهُ بِالْبَلَاءِ أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتَ اللهُ وَرَسُولَهُ. فَإِنْ عَصَيْتَ اللهُ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ. قَوْمُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمْ اللهُ».

أين يدفن جثمان الرسول ﷺ؟

وَبَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ يَتَفَقَّهُونَ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ بَيْعَةَ السَّقِيفَةِ ثُمَّ الْبَيْعَةَ الْعَامَّةَ، كَانَ جُثْمَانُ النَّبِيِّ حَيْثُ كَانَ عَلَى سَرِيرِ مَوْتِهِ يَحِيطُ بِهِ الْأَقْرَبُونَ مِنْ أَهْلِهِ. فَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ لِأَبِي بَكْرٍ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى جِهَازِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَيْ يَدْفِنُوهُ. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَيْنَ يَدْفِنُ. قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: يَدْفِنُ فِي مَكَّةَ مَسْقُطَ رَأْسِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: بَلْ يَدْفِنُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَيْثُ دُفِنَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ. وَمَا أَدْرَى كَيْفَ قَالَ أَصْحَابُ هَذَا الرَّأْيِ، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ كَانَ مَا يَزَالُ بِأَيْدِي الرُّومِ، وَكَانَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْمُسْلِمِينَ عَدَاوَةٌ مِنْذُ مَوْتِهِ وَتَبُوكَ حَتَّى جَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَيْشَ أَسَامَةَ لِلتَّأْر. وَلَمْ يَرْضَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الرَّأْيَ وَلَا هُمْ رَضُوا أَنْ يَدْفِنَ النَّبِيُّ بِمَكَّةَ، وَرَأَوْا أَنَّ يَدْفِنَ بِالْمَدِينَةِ الَّتِي آوَتْهُ وَنَصَرَتْهُ وَالَّتِي اسْتَظَلَّتْ قَبْلَ غَيْرِهَا بِلَوَاءِ الْإِسْلَامِ. وَتَحَدَّثُوا أَيْنَ يَدْفِنُ؟ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ: يَدْفِنُ بِالْمَسْجِدِ حَيْثُ كَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ وَيُعْظِمُهُمْ وَيُصَلِّيُ بِهِمْ؛ وَرَأَى هَؤُلَاءُ أَنَّ يَدْفِنُ حَيْثُ يَقُومُ الْمَنْبَرُ أَوْ إِلَى جَانِبِهِ. لَكِنْ هَذَا الرَّأْيُ لَمْ يَلِثْ أَنْ رُقِضَ؛ لَمَّا رَوَى عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ عَلَيْهِ رِءَاءٌ أَسْوَدٌ حِينَ اشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، فَكَانَ يَضَعُهُ مَرَّةً عَلَى وَجْهِهِ وَيَكْشِفُهُ عَنْهُ مَرَّةً وَهُوَ يَقُولُ: قَاتَلَ اللهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ! ثُمَّ قَضَى أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ النَّاسِ إِذْ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ. ثُمَّ تَقَرَّرَ أَنَّ يُحْفَرُ لَهُ مَكَانُ الْفَرَّاشِ الَّذِي قُبِضَ فَوْقَهُ.

غسل النبي ﷺ ووداع الجثمان الطاهر:

وتولى غسل النبي ﷺ أهله الأقربون، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وولده الفضل وقثم وأسامة بن زيد. وكان أسامة بن زيد وشُقران مولى النبي هما اللذان يصبان الماء عليه وعلى يغسله وعليه قميصه؛ فقد أبوا أن ينزعوا عنه القميص. وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيباً حتى كان علي يقول: بأبي أنت وأمي! ما أطيبك حياً وميتاً! ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبي ﷺ طوال حياته من التطيب حتى كان يرى الطيب بعض ما حُبب إليه من هذه الحياة الدنيا. فلما فرغوا من غسله وعليه قميصه كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صَحَارِيِّين^(١) وبرد حبرة أدرج فيه إدراجاً. ولما تم الجهاز على هذا النحو ترك الجثمان حيث كان، وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون، يلتقون على نبيهم نظرة الوداع، ويصلون على النبي ﷺ، ثم يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم إلى قرار سحيق.

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصليان مع المسلمين لا يؤمهم في صلاتهم هذه أحد. فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. نَشْهَدُ أَنْ نَبِيَّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ قَدْ بَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ حَتَّى أَتَمَّ اللَّهُ النَّصْرَ لِدِينِهِ، وَأَنَّهُ وَفَى بِوَعْدِهِ، وَأَمْرٌ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وكان المسلمون يجيئون عند كل جملة من كلام أبي بكر في هيبة وخشوع: آمين آمين. فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أدخل النساء، ثم أدخل الصبيان من بعدهم. وهؤلاء وأولئك جميعاً كل واجف قلبه بحزون فؤاده يقرى الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين، وتساوره على دين الله أشد الخشية من بعده.

من ساعات التاريخ الرهيبة:

وإني لأستعيد الساعة، بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة من ذلك اليوم، صورة هذا المشهد الرهيب المهبوط فتمتلئ نفسى هيبة وخشوعاً ورهبة. هذا الجثمان المسجى في ناحية من الحجرة التي ستصبح غداً قبراً والتي كانت إلى أمس بساكنها ﷺ حياة ورحمة ونوراً؛ وهذا الجثمان الطاهر لذلك الذى دعا الناس إلى الهدى والحق، وكان لهم المثل الأعلى في البر والرحمة والإقدام والإباء وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل معتد أثيم؛ وهذه الجموع تمر به كاسفة الببال كسيرة الطُرف، وكل رجل وكل امرأة وكل صبي يذكر في هذا الرجل الذى اختار جوارر ربه أباه وأخاه وصاحبه ووفيه ونبي الله ورسوله! أى شعور تملئ به تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقاً مما يخفى الغد بعد موت

(١) صحارى: نسبة إلى صحار قرية باليمن، قيل: هو من الصحرة وهى حمرة خفيفة كالغبرة، يقال: ثوب أصحر وصحارى.

الرسول - أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب، فأراني شاخصاً له مأخوذاً به يمتلئ القلب من جلال هيئته، أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً.

تبلييل عقائد المستضعفين:

وكان من حق المسلمين أن تُساورهم الخشية. فمنذ ذاع النبأ بموت النبي ﷺ في المدينة وترامى إلى قبائل العرب المحيطة بها، اشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجّم التفاف، وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب. وهُم أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتّاب بن أسيد عامل النبي على أم القرى فتواري منهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو بينهم، فقال بعد أن ذكر وفاة النبي ﷺ: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأينا ضربنا عنقه؛ ثم قال: يأهل مكة، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد، والله ليؤمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، لما رجعوا عن ردّهم؟

دفن النبي ﷺ:

وقد كان للعرب في حفر قبورهم طريقتان: إحداها لأهل مكة يحفرون القبر مسطح القاع، والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوساً. وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة. وحار أهل النبي ﷺ أى الطريقتين يسلكون في حفر قبره. فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة. فأما المبعوث إلى أبي عبيدة فلم يعد به وجاء المبعوث إلى أبي طلحة به، فلحّد لرسول الله ﷺ عنى طريقة أهل المدينة فلما كان المساء وبعد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر ودّعوه الوداع الأخير، اعتزم أهل النبي دفنه. فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل، وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبي ﷺ يلبسه، ثم أنزله الذين تولّوا غسله إلى المقرّ الأخير لرفاته، وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل، وقالت فاطمة مثل هذا القول. وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول، أى بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى.

عائشة وحجرة القبر:

وظلّت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها في الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم. ولما مات أبو بكر دُفن إلى جوار النبي، كما دُفن عمر إلى جواره من بعد. ويروى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دُفن عمر بها إذ لم يكن بها يومئذ غير أبيها وزوجها. فلما دُفن عمر كانت لا تدخل إلا محتجة لابسة كامل ثيابها.

إنفاذ جيش أسامة:

ولم يكذب المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ﷺ ودفعه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أسامة لغزو الشام تنبيهاً لما كان قد أمر رسول الله ﷺ به. وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبي. وانضم عمر إلى المعارضين ورأى ألا يُشَتَّت المسلمون، وأن يُحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر قد يدعو إليهم. لكن أبا بكر لم يتردد لحظة في تنفيذ أمر الرسول ﷺ، ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسن من أسامة وأكثر منه في الحرب ذرية. وتجهز الجيش عند الجرف وأسامة على رأسه، وخرج أبو بكر يودعه. هنالك طلب إلى أسامة أن يعفى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبي بكر. ولم تقض عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء، وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذي قُتل بؤنة أشد انتقام. وقد كانت صيحة الحرب في تلك الأيام المظفرة: «يا منصور أُمِتْ». وكذلك نفذ أبو بكر ونفذ أسامة أمر النبي، وعاد بالجيش إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي قتل أبوه بؤنة عليه، يتقدمه اللواء الذي عقده رسول الله ﷺ بيده.

الأنبياء لا يورثون:

ولما قبض النبي ﷺ طلبت فاطمة ابنته إلى أبي بكر أن يردها عليها ما ترك من أرض بفدك وخيبر. لكن أبا بكر أجابها بقول أبيها ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقة». ثم قال لها: فأما إن كان أبوك قد وهب لك هذا المال فإني أقبل كلمتك في ذلك وأنفذ ما أمر به، وأجابت فاطمة بأن أباه لم يُفَضِّ إليها بشيء من ذلك، وإنما أخبرتها أم أيمن بأن ذلك كان قصده. عند ذلك أصر أبو بكر على استبقاء فدك وخيبر وردها إلى بيت مال المسلمين.

الميراث الروحي العظيم:

وكذلك خرج محمد ﷺ من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئاً من عرضها الزائل لأحد بعده؛ خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيم، ومهد فيها لهذه الحضارة الإسلامية الكبرى التي تفي العالم ظلالها من قبل وسيأتي ظلالها من بعد، وأقر فيها التوحيد، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وقضى فيها على الوثنية في كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وترك من بعده كتاب الله هدى للناس ورحمة، وكان فيها المثل الأعلى والأسوة الحسنة. وكان من آخر ما ضربه للناس من الأمثلة أن قال للناس يوم كلمهم أثناء مرضه: «أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقد منى. ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه. ومن أخذت له

مالاً فهذا مالى فليأخذ منه، ولا يخش الشحنةاء فهي ليست من شأنى». وأدعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها. ثم ترك العالم بعد ذلك مخلفاً هذا الميراث الروحى العظيم الذى لا يزال ينتشر فى العالم حتى يتم الله كلمته، وينصر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون. صلى الله عليه وسلم.

خاتمة في مبحثين

١ - الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن

الحضارتان الإسلامية والغربية:

خَلَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ هذا الميراث الروحي العظيم الذى أظّل العالم ووجّه حضارته خلال عدة قرون مضت، والذى سيطّله من بعدُ ويوجه حضارته حتى يتم الله فى العالم نوره. وإنّا كان لهذا الميراث كل هذا الأثر فيما مضى، وسيكون له مثله وأكثر منه من بعدُ، لأنه أقام دين الحق ووضّع أساس حضارة هى وحدها كفيلة بسعادة العالم. والذين والحضارة اللذان يُلْفهما محمد للناس بوحى ربه، يتزاورجان حتى لا انفصال بينهما. ولئن قامت هذه الحضارة الإسلامية على أساس من قواعد العلم وهدى العقل، واستندت فى ذلك إلى ما تستند إليه الحضارة الغربية فى عصرنا الحاضر؛ ولئن استند الإسلام من حيث هو دين إلى التفكير الذاتى، وإلى المنطق التجريدى (الميتافيزيقى) - إن الصلة مع ذلك وثيقة بين الدين ومقرّراته والحضارة وأساسها. ذلك بأن الإسلام يربط بين التفكير المنطقى والشعور الذاتى، وبين قواعد العقل وهدى العلم، برابطة لا مفرّ لأهلها من البحث عنها والاهتداء إليها ليظلّوا مسلمين وطبداً إيمانهم. وحضارة الإسلام تختلف من هذه الناحية عن الحضارة الغربية المتحكمة اليوم فى العالم، كما تختلف عنها فى تصوير الحياة والأساس الذى يقوم هذا التصوير عليه. وهذا الاختلاف بين الواحدة والأخرى من هاتين الحضارتين جوهرى إلى الحد الذى يجعل أساس كل واحدة منها نقيض الأساس الذى تقوم عليه الأخرى.

الغرب وتنازع الكنيسة والدولة فيه:

يرجع هذا الاختلاف إلى أسباب تاريخية، أشرنا إليها فى تقديم هذا الكتاب وفى تقديم طبعته الثانية. فقد أدّى النزاع فى الغرب المسيحي بين السلطتين الدينية والزمنية - وبعبارة هذا العصر: بين الكنيسة والدولة - إلى الفصل بينها وإلى إقامة سلطان الدولة على إنكار سلطان الكنيسة. وكان لهذا التنازع على السلطان أثره فى التفكير الغربى كله. وفى مقدّمة النتائج التى ترتبت على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الإنسانى والعقل الإنسانى، وبين منطق العقل المجرّد ومقرّرات العلم الواقعى المستندة إلى الملاحظة المادّية.

النظام الاقتصادى أساس الحضارة الغربية:

وكان لانتصار التفكير المادى أثره البالغ فى قيام النظام الاقتصادى أساساً رئيسياً للحضارة

الغربية. فقد نشأ من ذلك أن قامت في الغرب مذاهب تريد أن تجعل كل ما في عالمنا خاضعاً للحياة هذا العالم الاقتصادية، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الإنسانية في أديانها وفنّها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مدّ أو جزر اقتصادى في أممها المختلفة. ولم يقف أمر هذا التفكير عند التاريخ وكتابه، بل أقامت بعض مذاهب الفلسفة الغربية قواعد الخلق على أسس نفعية مادية بحتة. ومع ما بلغت هذه المذاهب من براعة في التفكير وقوة في الابتكار، لقد أمسكتها التطور الفكرى في الغرب في حدود المنفعة المادية المشتركة، تُقيم عليها قواعد الخلق جميعاً، وترى ذلك من المقتضيات المحتومة للبحث العلمى. فأما المسألة الروحية فهي في نظر الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة، فلا محلّ لأن يُعنى الناس أنفسهم جماعة بها. ومن ثمّ كانت الإباحة في العقيدة بعض ما قدّسه أهل الغرب، وكانوا أشدّ تقدّساً لها من تقدّسهم الإباحة في الخلق؛ وهم أشدّ تقدّساً للإباحة في الخلق منهم لحرية الحياة الاقتصادية المقيدة بالقانون تقييداً ينفذه الجندي وتنفذه السولة بكل ما أوتيت من قوة.

قصور الحضارة الغربية عن إسعاد الإنسانية:

في اعتقادى أن حضارة تجعل الحياة الاقتصادية أساساً، وتقيم قواعد الخلق على أساس هذه الحياة الاقتصادية، ولا تقيم للعقيدة وزناً في الحياة العامة، تقصر عن أن تمهد للإنسانية سبيل سعادتها المنشودة. بل إن هذا التصوّر للحياة لجدير أن يجرّ على الإنسانية ما تعانيد من محن في هذه العصور الأخيرة، جدير أن يجعل كل تفكير في منع الحرب وفي توطيد أركان السلام في العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة. فإما دامت صلتى بك أساسها الرغيف الذى أكل أنا أو تأكل أنت وتنازعنا عليه ونضالنا في سبيله، قائمة بذلك على أساس القوة الحيوانية في كل منا، فسيظل كل منا يرقب الفرصة التى يحسن فيها الاحتمال للحصول على رغيف صاحبه؛ وسيظل كل منا ينظر إلى الآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه، وسيظل الأساس الخلقى الكمين في النفس أساساً حيوانياً بحتاً، وإن بقى كميناً حتى تدفع الحاجة إلى ظهوره، وستظل المنفعة وحدها قوام هذا الأساس الخلقى، على حين تنزلق عليه المعانى الإنسانية السامية والمبادئ الخلقية الكريمة، مبادئ الإيثار والمحبة والأخوة، فلا يكاد يسكها ولا تكاد تعلق به.

وما هو واقع في العالم اليوم خير مصداق عملى لما أذكر؛ فالتنافس والنضال هما المظهر الأول للنظام الاقتصادي، وهما لذلك أوّل مظهر لحضارة الغرب. وهما كذلك في المذهب الفردى وفي المذهب الاشتراكى على سواء. في المذهب الفردى يتنافس العامل العامل، ويتنافس رب المال رب المال، والعامل ورب المال فيه خصمان يتنافسان. وأرباب هذا المذهب يرون في هذا التنافس وهذا النضال كل خير للإنسانية ولتقدّمها. فيها عندهم الحافز للإتقان والحافز لتقسيم العمل، وهما المعيار العادل لتوزيع الثروة. أما المذهب الاشتراكى فيرى في نضال الطوائف، نضالاً يفتنها جميعاً حتى

يَرَدُّ الأمرُ كله للعمال، بعضُ ما تحتمه الطبيعة، وما دام التنافس والنضال على المال هما جوهر الحياة، وما دام النضال بين الطوائف طبعياً، فالنضال بين الأمم طبعى كذلك، وللغاية التى يقع من أجلها نضال الطوائف. ومن ثمَّ كانت فكرة القوميات أثراً محتوماً بحكم الطبيعة لهذا النظام الاقتصادى. أمَّا ونضال الأمم فى سبيل المال طبعى، أمَّا والاستعمار لذلك طبعى أيضاً، فكيف يمكن أن تمتنع الحرب ويستقرَّ السلام فى العالم؟ لقد شهدنا فى هذا القرن المتم للعشرين المسيحى وما نزال نشهد البيئات على أن السلام فى عالم هذا أساسُ حضارته حلم لا سبيل إلى تحقيقه، وأمنية معسولة، ولكنها سراب كذوب.

أساس الحضارة الإسلامية:

تقوم الحضارة الإسلامية على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية؛ فهى تقوم على أساس روحى يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء. فإذا بلغ من هذا الإدراك حد الإيمان، دعاه إيمانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده، وإلى تغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية: مبادئ الإباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والتقوى. وعلى أساس هذه المبادئ ينظم الإنسان حياته الاقتصادية. هذا التدرج هو أساس الحضارة الإسلامية كما نزل الوحي بها على محمد. فهى حضارة روحية أولاً. والنظام الروحي فيها هو أساس النظام التهذيبى وأساس قواعد الخلق. والمبادئ الخلقية هى أساس النظام الاقتصادى، فلا يجوز أن يضخى بشيء من مبادئ الخلق فى سبيل التنظيم الاقتصادى.

هذا التصوير الإسلامى للحضارة هو فى يقينى التصوير الجدير بالإنسانية الكفيل بسعادتها. ولو أنه استقر فى النفوس، وانتظم الحياة انتظام الحضارة الغربية اليوم إياها، لتبدلت الإنسانية غير الإنسانية، ولانهارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بها، ولقامت مبادئ سامية تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها.

والناس اليوم فى الغرب والشرق يحاولون حل هذه الأزمات دون أن ينتبه أحد منهم، ودون أن ينتبه المسلمون أنفسهم إلى أن الإسلام كفى بحلها؛ فأهل الغرب يتلمسون اليوم جدة روحية تنقذهم من وثنية تورطوا فيها، وكانت سبب شقائهم وعلة ما ينشَب من الحروب بينهم؛ تلك عبادة المال. وأهل الغرب يتلمسون هذه الجدة فى مذاهب الهند والشرق الأقصى على حين هى قريبة منهم؛ يجدونها مقررة فى القرآن، مصورة خير صورة فيها ضربه النبىُّ العربى للناس من مثل أثناء حياته.

لا نزاع فى الإسلام بين الدين والدولة:

لست أطمع فى أن أصور هنا هذه الحضارة الإسلامية ونظامها؛ فهذا التصوير يقتضى بحثاً مستفيضاً، ويستغرق كتاباً فى حجم هذا الكتاب أو أكثر منه؛ وإنما أريد أن أجهل صورة هذه الحضارة، بعد أن أشرت إلى الأساس الروحي الذى تقوم عليه، لعل بذلك أصور الدعوة المحمدية

في مجموعها وأمهّد بهذا التصوير لمباحث أكثر استفاضة وعمقاً. وإني ليجمل بي قبل ذلك أن أشير إلى أن تاريخ الإسلام خلا من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية أى بين الكنيسة والدولة. فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه. وترجع نجاة الإسلام من هذا النزاع وآثاره إلى أنه لم يعرف شيئاً اسمه الكنيسة أو السلطة الدينية على نحو ما عرفت المسيحية. فليس لأحد من المسلمين، ولو كان خليفة، أن يفرض أمراً على الناس باسم الدين، وأن يزعم أنه قدير مع ذلك على الغفران لمن خالف هذا الأمر. وليس لأحد من المسلمين، ولو كان خليفة، أن يفرض على الناس غير ما فرضه الله في كتابه. بل المسلمون أمام الله سواسية، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى. وليس لوليّ الأمر على مسلم طاعة في معصية ولا فيما لم يأمر الله به. يقول أبو بكر الصديق حين خطب المسلمين يوم بايعوه بالخلافة: أطيعوني ما أطيع الله ورسوله. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. ومع ما آل إليه الأمر في الإسلام بعد ذلك من ملك عَضُوض، ومع ما قام بين المسلمين من ثورات أهلية، لقد أقام المسلمون على تمسكهم بهذه الحرية الذاتية العظيمة التي قررها لهم دينهم؛ هذه الحرية التي جعلت العقل حكماً في كل شيء، والتي جعلته حكماً في الدين وفي الإيمان نفسه. لقد تمسكوا بهذه الحرية حتى بعد أن ادعى أمراء المؤمنين أنهم خلفاء الله لا خلفاء رسوله على الأرض، وأنهم يملكون من أمر المسلمين كل شيء حتى الحياة والموت. يشهد بذلك ما حدث في عصر المأمون حين اختلف على القرآن أمخلاق هو أم غير مخلوق؟ فقد خالف الكثيرون رأى الخليفة مع علمهم بما يستهدف له المخالف من عقاب وغضب. جعل الإسلام العقل حكماً في كل شيء، وجعله حكماً في الدين وفي الإيمان نفسه. يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بَمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

الإسلام يجعل العقل حكماً في كل شيء:

ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية فيقول: «إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن رُئى على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحاً بغير فقه، فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته».

وهذا الذي يقوله الشيخ محمد عبده تفسيراً لهذه الآية قد جاء به القرآن صريحاً في آيات كثيرة

غيرها. فهو يدعو الناس إلى النظر في الكون ومعرفة أنبيائه ليهدهم نظرهم إلى وجود الله ووحده جل شانه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ الْأَرْضِ الَّتِي أَخْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبَتْ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ. وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرَى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. وَأَيُّ لَهِمُّ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَسْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ. وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه وللاهتمام إلى الإيمان بيارئه يكررها القرآن مئات المرات في سورة المختلفة، وكلها موجهة إلى قوَى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبيته، وتحذره الأخذ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه وتحييص له وثقة ذاتية ببلغه من الحق.

قوة الإيمان:

هذا هو الإيمان الذي دعا الإسلام إليه، وهو ليس هذا الإيمان الذي يسمونه إيمان العجائز، إنما هو إيمان المستبين المستيقن الذي نظر ونظر، ثم فكّر وفكّر، ثم وصل من النظر والتفكير إلى اليقين بالله جلّ قدرته، وما أحسب رجلاً نظر بعقله وقلبه ثم لم يبتد إلى الإيمان. وهو كلما أنعم نظره وأطال تأمله وتدبره، وحاول الإحاطة بالزمان والمكان وما تشتمله وحدتها التي لا نهاية لها من عوالم دائمة المور، شعر بنفسه ذرةً من هذه العوالم تجري كلها على سنن تمسكها، وإلى غاية عند بارئها علمها، وتيقن من ضعفه وقصور علمه إذا لم يستعن على إدراك هذا الوجود بقوة فوق حسه وفوق عقله، تصل بينه وبين هذه العوالم جميعاً، وتجعله يشعر بمكانته منها. وتلك قوة الإيمان.

الإيمان بالله:

فالإيمان إذاً شعور رוחي يحسّ به الإنسان يلاً نفسه كلما اتصل بالكون وفي في لا نهاية المكان والزمان، وامتل الكائنات كلها في نفسه، قرأها تجري كلها على سنن تمسكها، ورأها كلها تسبح

بحمد ربها؛ بارئها ومنشئها. أمّا أنه جلّ شأنه مائل فيها متّصل بها، أو هو مستقلّ بنفسه منفصل عنها، فهذه مضاربات جدليّة عقيمة تُضِلّ ولا تهدي، وتضرّ ولا تنفع. وهي بعد لا تزيدنا علماً. ولقد طالما أجهد الكتاب والفلاسفة أنفسهم يحاول بعضهم حلّها، ويحاول بعضهم معرفة جوهر الخالق جلّ شأنه، فذهب جهدهم عبثاً، وأقرّ بعضهم بأنها فوق ما نُطيق إدراكه - ولئن قصر عقلنا دون هذا الإدراك ليكون هذا القصور أدنى إلى تثبيت إيماننا. فشعورنا اليقيني بوجوده جلّ شأنه وبإحاطته بكل شيء علماً، وبأنه الخالق المصوّر إليه يرجع الأمر كله، من شأنه أن يُقنعنا بأننا لن نستطيع أن ندرك كنهه على شدّة إيماننا به. وإذا كنا حتى اليوم لا ندرك ما الكهريا وإن شهدت أعيننا آثارها، وكانت تكفيها هذه الآثار لنؤمن بالكهريا والأثير، فما أشدنا غروراً ونحن نشهد كل يوم من بديع صنع الله إذا نحن لم نؤمن به حتى نعرف كنهه، تنزّه جلّ شأنه عما يصفون. والواقع في الحياة أن الذين يحاولون تصوير ذاته جلّ شأنه هم الذين يعجز إدراكهم عن السموّ إلى تصوّر ما فوق حياتنا الإنسانية، والذين يريدون أن يقيسوا الوجود وخالق الوجود بمقاييسنا النسبية المحصورة في حدود علمنا القليل. أمّا الذين أوتوا العلم حقاً فيذكرون قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وقتل قلوبهم إيماناً بخالق الروح وخالق الكون كله، ثم لا يزجون بأنفسهم في مضاربات عقيمة لا ثمرة لها ولا نتيجة.

ويفرق القرآن بين الإسلام بعد الإيمان والإسلام دون إيمان. يقول تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢).

الإيمان أسس الإسلام:

فمثل هذا الإسلام إذعان لدعوة الداعي عن رغبة أو رهبة أو إعجاب وتقديس دون امتثال النفس هذه الدعوة وفهمها إيّاها إلى حدّ الإيمان بها. فصاحبه لم يهده الله للإيمان عن طريق النظر في الكون ومعرفة سنته، والاهتداء من هذا النظر وهذه المعرفة إلى خالقه، وإنما أسلم لرغبة أو هوى أو لأنه وجد آباءه مسلمين. وهو لذلك لم يدخل الإيمان في قلبه على رغم إسلامه. من أمثال هذا المسلم مَنْ يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً. وهؤلاء الذين يسلمون دون إيمان، وإنما يسلمون عن رغبة أو رهبة أو هوى، تظل نفوسهم ضعيفة وعقائدهم مزعجة وقلوبهم مستعدّة للإذعان للناس والخضوع لأمرهم. فأما الذين تصل عقولهم وقلوبهم إلى أن تؤمن بالله من طريق النظر في الكون إيماناً صادقاً، يدعوه إلى أن يسلموا لله وحده أمرهم، فأولئك لا يعرفون لغير الله خضوعاً ولا إذعانا. وهم لا يمتنون على أحد إسلامهم، ﴿يَبْلُغُ اللَّهُ بِكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣).

(٣) سورة المجرات آية ١٧.

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

(٢) سورة المجرات آية ١٤.

فمن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أولئك لا يخافون في الحياة فقراً ولا مذلة لأن الإيمان غاية الغنى وغاية العزّة. والعزّة لله جميعاً وللمؤمنين.

والنفس الراضية المنظمّة إلى هذا الإيمان لا تستريح إلا في الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه كيما تزداد بالله اتّصلاً. وسيلها إلى هذه المعرفة البحث والنظر في خلق الله مما في الكون نظراً علمياً دعا القرآن إليه وجَدَّ المسلمون الأوّلون فيه، وهو الطريقة العلمية الحديثة في الغرب. على أن الغاية منه تختلف في الإسلام عنها في الحضارة الغربية. فهي في الإسلام ترمى إلى أن يجعل الإنسان من سنّة الله في الكون سنّةً ونظامه، على حين ترمى في الغرب إلى الاستفادة المادية مما في الكون. وهي في الإسلام ترمى أولاً وقبل كل شيء، إلى حسن العرفان بالله عرفاناً كلما ازداد إيماناً به جل شأنه. وهي ترمى إلى حسن العرفان من جانب الجماعة كلها لا من جانب الفرد وحده. فالكمال الروحي ليس مسألة فردية صرفة، فلا محلّ لأن يعنى الناس أنفسهم جماعة بها، بل هو أساس الحضارة للجماعة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها. وواجب لذلك على الإنسانية أن تدأب في سبيل هذا الكمال الروحي أكثر من دأبها للوقوف على حقيقة المحسوسات، وأن تجعل من معرفة أسرار الأشياء وسنن الكون وسيلتها إلى هذا الكمال أكثر مما تجعل من هذه المعرفة وسيلة للسلطان المادّي على الأشياء.

الاستعانة بالله للاهتمام إلى سنة الكون:

ليس يكفي لبلوغ هذه المرتبة من الكمال الروحي أن نستعين بمنطقنا وحده، بل يجب أن نهد قلوبنا وعقولنا سبيل الوصول إلى أسمى ما نستطيع الوصول إليه من هذا المنطق. وإنما يكون ذلك بالتماس العون من الله واتجاه الإنسان إليه تعالى بقلبه وروحه، إيّاه يعبد، وإيّاه يستعين، للاهتمام إلى أسرار الكون وسنن الحياة. وهذا هو الاتصال بالله شكراً لله على نعمته، ليزيدنا اهتماماً إلى ما لم ننتد إليه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١). وقال جل شأنه: ﴿وَاسْتَجِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢).

الصلاة:

الصلاة هي هذا الاتصال بالله إيماناً به والتماساً للعون منه. وليس القصد منها حركات الركوع والسجود، وتلاوة ما يتلى من القرآن، أو تلاوة التكبير والتعظيم لله جل شأنه، دون أن تمتلئ النفس إيماناً به والقلب تقدّيساً له والفرّاد سموّاً إليه، وإنما القصد منها، وما فيها من تكبير وتلاوة وركوع وسجود إلى هذا السموّ والتقدّيس والإيمان، وإلى عبادته عبادة خالصة لوجهه نور السموات

والأرض. يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بَاقَهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١).

فالمؤمن الصادق الإيمان هو من يتوجه بقلبه إلى الله ساعة الصلاة، يشهده على تقواه ويستعينه على أداء واجب الحياة، ويستمد منه هدايته، ويستلهمه توفيقه لإدراك سر الكون وسننه ونظامه.

التساوي أمام الله:

والمؤمن الصادق الإيمان باقه يشعر بنفسه أثناء صلاته، ويشعر بها دائماً شيئاً ضئيلاً أمام عظمة الله العليّ الكبير. إننا إذ نرتفع في طائرة من الطائرات ألفاً أو بضعة آلاف من الأمتار، نرى الجبال والأنهار والمدن ومظاهر صغيرة على هذه الأرض، ونراها ترتسى أمام باصرتنا وكأنها خطوط مرسومة على خريطة من الورق، وكأنها قد تساوى سطحها فلا ارتفاع لجبل ولا لبناء، ولا انخفاض لبئر ولا نهر. ولا شيء أكثر من ألوان تتوالى وتتمازج وتزداد تمازجاً كلما ازدادنا نحن ارتفاعاً. وأرضنا كلها ليست إلا كوكباً صغيراً في عالم ألوف الأفلاك والكواكب، وليست إلا كماً ضئيلاً جداً في لا نهاية هذا الوجود. فما أصغرنا وما أضعفنا شأننا أمام ياربي هذا الوجود ومدبره جلّت عن أفهامنا عظمته! وما أجددنا، ونحن نتوجه بقلوب خالصة إلى جلال قدسه الأسمى لتلمس منه العون لتقوية ضعفنا وهدايتنا إلى الحق، أن نرى مبلغ تساوى الناس جميعاً في الضعف الذي لا يشد من أزره أمام الله مال ولا جاه، وإنما يشد من أزره الإيمان الصادق والخضوع لله والبر والتقوى.

شأن ما بين هذه المساواة التامة الصحيحة أمام الله، وبين ما كانت تتحدث عنه الحضارة الغربية في العصور الأخيرة من المساواة أمام القانون. ولقد بلغت هذه الحضارة الآن أن كادت تنكر هذه المساواة أمام القانون، ولا توجب احترامه على طائفة من الناس. شأن ما بين هذه المساواة أمام الله، مساواة تمسها حقيقة ملموسة في ساعة الصلاة وتهتدى إليها برأيك الحر، وبين مساواة في النضال لكسب المال نضالاً يبيع الخديعة والنفاق، ثم ينجو صاحبه من سلطان القانون ما مهر في التحايل عليه وبرع في حسن العبث به.

هذه المساواة أمام الله تدعو إلى الإخاء الصادق؛ لأنها تشعر الناس جميعاً بأنهم إخوة في العبودية لخالقهم والعبودية له وحده. وهذا إخاء يقوم على تقدير سليم ونظر جرّ وتدبر فرضه القرآن. وهل حرية وإخاء ومساواة أعظم من وقوف هذا الجمع أمام الله تعنو له جميعاً جباههم، إياه يكبرون وله

يركعون ويسجدون، لا تفاوت في ذلك بين أحدهم وأخيه، وكلهم مستغفرون تائب مستعين، وليس بين أحدهم وبين الله إلا عمله الصالح وما قدم من بر وتقوى. إزاء هذا شأنه يصفى القلوب ويظهرها من قذى المادة، ويكفل للناس السعادة كما يؤدى بهم إلى إدراك سنة الله في الكون ما هداهم الله بنوره إلى هذا الهدى.

الصوم:

الناس جميعاً ليسوا سواء في القدرة على ما أمر الله به من التقوى. فقد ينقل جسمنا روحنا وتغطي ماديتنا على إنسانيتنا إذ لم ندّم رياضة الروح ولم نتوجه بقلوبنا لله أثناء صلواتنا، واكتفينا بأوضاع الصلاة من ركوع وسجود وتلاوة؛ لذلك وجب جهد الطاقة أن نكف عما يجعل الجسم ينقل الروح ويجعل المادية تغطي على الإنسانية. ولذلك فرض الإسلام الصوم وسيلة لبلوغ مرتبة التقوى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١). والتقوى والبر سواء، فالبر من اتقى، والبر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبين، وقام بنا ورد في الآية التي أسلفنا.

وإذا كان القصد من الصوم ألا يُثقل الجسم الروح، وألا تغطي ماديتنا على إنسانيتنا، فالوقوف به عند الإمساك من الفجر إلى الليل والإمعان بعد ذلك في الاستمتاع بالذات تفرت لهذا القصد. فالإمعان في الاستمتاع مفسدة لذاته ومن غير صيام، ما بالك به إذا صام المرء وأمسك طيلة نهاره عن كل طعام وشراب ولذة، فإذا انقضى وقت الصيام أسلم نفسه لما يحسبها حُرمته أثناء النهار من نعمة! إنه إذا ليشهد الله على أنه لم يصم تطهيراً لجسمه وسمواً بإنسانيته، ولم يصم لذلك مختاراً إيماناً منه بفائدة الصوم في حياتنا الروحية، بل صام أداءً لفرض لا يدرك بعقله ضرورته، ويرى فيه حرماناً له من حرية سرعان ما يستردّها آخر النهار حتى ينهمك في لذاته استعاضة عما حُرِم بالصوم منها. ومن يفعل ذلك فشأنه كشأن من لا يسرق لأن القانون يحرم عليه السرقة، لا لأنه يسمو بنفسه عنها ويحرمها على نفسه وعلى غيره مختاراً.

الصوم ليس حرماناً:

وفي الحق أن النظر إلى الصيام على أنه حرمان وحد من حرية الإنسان نظر خاطئ يجعل الصيام عبثاً لا محل له. إنما الصيام ظهور للنفس يوجب العقل عن اختيار من الصائم كي يسترد به حرية إرادته وحرية تفكيره. فإذا استردّها استطاع السمو بها إلى عليا مراتب الإيمان الحق بالله. وهذا هو المقصود بقوله تعالى، بعد ذكره أن الصيام كُتب على المؤمنين كما كُتب على الذين من قبلهم: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ

(١) سورة البقرة آية ١٨٣.

طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون^(١).
 قد يبدو غريباً ما أقول من أننا نستردُّ بالصيام حرية الإرادة وحرية التفكير إذا قصدنا من الصيام إلى ما فيه من خير لحياتنا الروحية. وهو إنما يبدو غريباً لأن التفكير الحديث أفسد في أذهاننا صورة الحرية، حين هدم حدودها الروحية والنفسية، ثم استبقى حدودها المادية التي ينفذها الجندي بسيف القانون. فالإنسان ليس حراً بحكم هذا التفكير الحديث في أن يعتدى على مال غيره أو على شخصه، ولكنه حراً في أمر نفسه وإن جاوز في ذلك كل ما بقره العقل أو تخليه قواعد الخلق. والواقع في الحياة غير هذا. والواقع أن الإنسان عبد العادة؛ فهو معتاد أن يتناول طعامه في الصباح وفي الظهر وفي المساء؛ فإذا قيل له: بل تناول في الصباح وفي المساء فقط، اعتبر هذا اعتداء على حرّيته، في حين هو اعتداء على عبوديته لعادته، إن صح هذا التعبير. ومن اعتاد أن يدخن إلى حد استعباد التدخين إياه؛ فإذا قيل له اقضِ نهارك لا تدخن اعتبر هذا اعتداءً على حرّيته، في حين هو لا يزيد على أنه اعتداء على عبوديته لعادته. ومنهم من اعتاد تناول القهوة أو الشاي أو غيرها من ألوان الشراب في أوقات معينة له؛ فإذا قيل له اعدل عن هذه الأوقات إلى غيرها عدّ الاعتداء على عبوديته لعادته اعتداء على حرّيته. وهذه العبودية للعادة مفسدة للإرادة، مفسدة للفكرة الصحيحة من الحرية في صورتها الصادقة. وهي بعد مفسدة لسلامة التفكير؛ لأنها تخضعه للتأثر بضرورات الجسم المادية التي طبعها العادة فيه. ولهذا يعكف كثيرون على ألوان مختلفة من الصوم يزاوونها في فترات من كل أسبوع أو من كل شهر. لكن الله أراد بالناس اليسر، إذ كتب عليهم الصيام أياماً معدودات يكونون أثناءها جميعاً سواء، وإذ جعل لهم القدية وإذ أعفى من كان منهم مريضاً أو على سفر على أن يؤدى هذا الصيام في أيام آخر.

ولفرض الصيام أياماً معدودات من توطيد معنى الإخاء والمساواة أمام الله ماله من رياضة روحية. فالناس إذ يسكون جميعاً من مطلع الفجر إلى الليل، تتم بينهم المساواة كما تتم في صلاة الجماعة، ويشعرون خلال ذلك بإخائهم شعوراً يُضعفه تفاوتهم في الاستمتاع بما رزق الله كلا منهم من أسباب الاستمتاع في الحياة. ومن ثم كان الصيام موطئاً لمعاني الحرية والإخاء والمساواة في نفس الإنسان مثلما توطئها الصلاة.

إذا أقبلنا على الصيام مختارين، مدرّكين أن أمر الله لا يمكن أن يختلف عن حكم العقل ما أدرك العقل أغراض الحياة في أسْمَى صورها قَدَرْنَا ما في الصيام من تحرير لنا من رقّ العادة، ومن رياضة لإرادتنا وحرّيتنا، وذكرنا أن ما يفرضه الإنسان على نفسه بإذن الله، من حدود روحية ونفسية غرّيته بالتحريّر من بعض عاداته وشهواته، هو خير ما يكفل لتفكيره أن يبلغ مراتب الإيمان العليا. وإذا كان التقليد في الإيمان ليس إيماناً بل هو إسلام من غير إيمان، فالتقليد في الصوم ليس

صومًا، ولذلك يعتبره المقلد حرامًا وحادًا من حريته، بدل أن يدرك ما فيه من تحرير من قيود العادة ومن غذاء نفسي وروحي عظيم.

الزكاة:

إذا بلغ الإنسان، من طريق هذه الرياضة الروحية، أن اهتدى إلى سنن الكون وأسراره، وأن عرف مكانه ومكان بنى الإنسان منه، ازداد لإخوانه بنى الإنسان حبًا، وتحاب بنو الإنسان جميعًا في الله، وتعاونوا على البر والتقوى، ورحم قلوبهم ضعيفهم، ونزل غنيهم لفقرهم عن حظ من ماله. وهذه هي الزكاة والمزيد عليها هو الصدقة.

والقرآن يقرن الزكاة إلى الصلاة في كثير من المواضع. وقد تلوت قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾^(٢) ويقول جل شأنه: ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم فى صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون﴾^(٣). والآيات التى تقرن الزكاة إلى الصلاة كثيرة.

وما ورد فى القرآن عن الزكاة وعن الصدقة مستفيض قوى غاية القوة. وهو يضع الصدقة فى المكان الأول من فعل الخير الذى يُجْزَى الإنسان عليه الجزاء الأوفى. بل هو يضعها إلى جانب الإيمان بالله حتى لتشعر بأنها تكاد تعدله بقوله تعالى: ﴿خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾^(٤). ويقول جل شأنه: ﴿...وبشر المخبتين. الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون﴾^(٥). ويقول تبارك وتعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٦).

أدب الصدقة:

ولا يقف القرآن عند ذكر الصدقات، ومثوبة صاحبها عند الله كمثوبة من آمن به وأقام الصلاة، بل ينظم أدب هذه الصدقات تنظيمًا هو السمو كله. يقول تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾^(٧). ويقول: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة

(١) سورة البقرة آية ١٧٧.

(٢) سورة البقرة آية ٤٣.

(٣) سورة المؤمنون الآيات من ١ إلى ٤.

(٤) سورة الحاقة الآيات من ٣٠ إلى ٣٤.

(٥) سورة الحج آيتا ٣٤ و ٣٥.

(٦) سورة البقرة آية ٢٧٤.

(٧) سورة البقرة آية ٢٧١.

يتبعها أذى والله غنى حليم. يأيا الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى^(١). ويقول جل شأنه في بيان من تكون لهم هذه الصدقات: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

الزكاة عبادة:

الزكاة والصدقة فريضة من فرائض الإسلام، وركن من أركانه، لكن أعباداً هذا الفرض، أم هو أدخل في الأخلاق وتهذيبها؟ هو عبادة لا ريب؛ فالمؤمنون إخوة، ولا يتم إيمان المرء حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه. فالمؤمنون يتحابون بنور الله بينهم. وفريضة الزكاة والصدقة تتصل بهذا الإخاء، ولا تتصل بالأخلاق وتهذيبها ولا بالمعاملات وتنظيمها. وما اتصل بالإخاء اتصل بالإيمان بالله. وكل ما اتصل بالإيمان فهو عبادة. ولذلك كانت الزكاة ركناً من أركان الإسلام الخمسة. ومن أجل ذلك قام أبو بكر بعد وفاة النبي يطالب المسلمين بأدائها، فلما رأى بعضهم النكول عنها، رأى خليفة محمد في هذا النكول ضعفاً في إيمانهم وتفضيلاً للمال عليه، وخروجاً على النظام الروحي الذي نزل به القرآن، وارتداداً بذلك عن الإسلام، فكانت حروب الردة التي ثبت بها أبو بكر رسالة الإسلام كاملة، والتي بقيت فخراً على الأيام.

المال والحرص عليه:

واعتبار الزكاة والصدقة فرضاً متصلاً بالإيمان، يجعلها بعض النظام الروحي الذي يجب أن ينتظم حضارة العالم. وهذا أسمى ما تبلغ إليه الحكمة وما يكفل للناس سعادتهم. فالمال والحرص عليه والاستكثار منه واتخاذ وسيلة لاستعلاء الإنسان على الإنسان، كان ولا يزال سبباً لشقاء العالم ومصدراً للثورات والحروب فيه. وعبادة المال كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقي الذي أصاب العالم، والذي لا يزال العالم يزرع تحت أعبائه. والاستكثار من المال والحرص عليه هو الذي قضى على الإخاء الإنساني، وجعل الناس بعضهم لبعض عدواً. ولو أنهم كانوا أوصح نظراً وأسمى تفكيراً؛ لرأوا الإخاء أدعى للسعادة من المال، ولرأوا بذل الماء للمحتاج أكبر جأهاً عند الله والناس من إذلال الناس لهذا المال. ولو أنهم آمنوا بالله حقاً لتأخوا فيها بينهم، ولكان أدنى مظاهر تأخيرهم إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، ومحو الشقاء عن تجر المتربة ومجر أفقر عليهم هذا الشقاء. وإذا كانت بعض الدول السامية الحضارة، في وقتنا الحاضر، تقيم شعوبها المستشفيات والمنشآت الخيرية لإيواء البائس، والبرّ بالمحروم، ورعاية الفقير، باسم الشفقة والإنسانية، فإن إقامة هذه المنشآت بدافع الإخاء والتحاب في الله والشكر له على نعمته أسمى في الفكرة وأدعى إلى سعادة الناس

(١) سورة البقرة آيتا ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٢) سورة التوبة آية ٦٠.

جميعاً. قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾^(١).

الحج:

هذا الإخاء الإنساني يزيد الناس بعضهم لبعض محبة. وليس يجوز في الإسلام أن تقف هذه المحبة عند حدود وطن بالذات، ولا أن تنتهي إلى حدود قارة من القارات، بل يجب ألا تعرف حدوداً البتة.

لذلك يجب أن يتعارف الناس من أطراف الأرض جميعاً، ليزداد بعضهم لبعض في الله محبة، ولتزيدهم محبتهم هذه بالله إيماناً. ووسيلة ذلك أن يجتمعوا من أطراف الأرض في صعيد واحد. وخير مكان يجتمعون فيه، إنما هو المكان الذي انبثق فيه نور هذه المحبة، وهذا المكان هو بيت الله بمكة؛ وهذا هو الحج. والمؤمنون إذ يجتمعون فيه وإذ يؤدون شعائره، يجب أن تكون حياتهم مثلاً أثناءه سامياً للإيمان بالله وإخلاص القصد في التوجه إليه. يقول تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب﴾^(٢).

في هذا الصعيد الذي يحج المؤمنون إليه ليتعارفوا، وليرتبطوا بأقوى روابط الإخاء فيزيدهم إixaؤهم إيماناً، يجب أن تسقط كل الفوارق وألا يكون بين هؤلاء المؤمنين جميعاً تفاوتات، ما، ويجب أن يشعروا بأنهم جميعاً أمام الله سواسية، وأن يتوجهوا إليه بقلوبهم مستجيبين لدعوته، مؤمنين بوحدايته، شاكرين لنعمته. وأية نعمة أكبر من نعمة الإيمان به جل شأنه مصدر كل خير ونعمة! أمام نور هذا الإيمان تنقش أوهام الحياة، ويزول باطل غرورها من مال وبنين وجاه وسلطان. وبفضل نوره يصل الإنسان إلى إدراك ما في الوجود من حق وخير وجمال، وما يجرى عليه الكون من سنن الله الخالدة لا تحويل لها ولا تبديل. وهذا الاجتماع العام يحقق معاني الإخاء والمساواة بين المؤمنين جميعاً في أوسع صورها وأكثرها سموً وصفاء.

قواعد الخلق في الإسلام:

هذه قواعد الإسلام وفرائضه كما نزل بها الوحي على محمد ﷺ. وهي أركان الإيمان كما رأيت في الآيات التي أثبتناها هنا، وأركان الحياة الروحية الإسلامية. ومن اليسير عليك أن تقدر بعد ذلك ما يمكن أن تقوم على هذا الأساس من قواعد الخلق. هي قواعد سامية غاية السمو، بلغت من ذلك ما لا نظير له في أية حضارة من الحضارات ولا في أي عصر من العصور. وقد نص القرآن فيها على ما يصل بالإنسان إلى غاية كماله إذا هو هذب نفسه على موجبها

وأدبها بأدبها. وهى لم ترد فى سورة واحدة من سور القرآن، بل وردت متفرقة فيه، فلا تكاد تتلو سورة منه حتى تسمو بنفسك إلى ذروة من الرقى لم تبلغها حضارة من قبل ولا يمكن أن تبلغها حضارة من بعد. وحسبك قيام أدب النفس على أساس روحى مصدره الإيمان بالله ورياضة العقل والقلب على هذا الأساس، دون النظر إلى أية منفعة مادية يجنيها الإنسان من وراء التأدب بهذا الأدب، لترى رفعة هذه الذروة التى بلغت.

الرجل الكامل فى القرآن:

لقد طالما صور الكتاب فى مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل. صورته الشعراء والكتاب والفلاسفة والمسرحيون. صوروا هذه الصورة فى العصور القديمة وما يزالون يصورونها حتى اليوم. مع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التى وردت فى سياق سورة الإسراء؛ وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل، وإنما يقصد بها أن يذكر الناس بعض ما يجب عليهم. يقول تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا. ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا. وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا. ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا. ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا. ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسط المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا. ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا. ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾^(١).

أى سمو بالنفس كهذا السمو، وأى كمال لها كهذا الكمال، وأى طهر للذيل كهذا الطهر، وإن كل آية من هذه الآيات لتقف قارئها أمامها، مقدسا لما جمعت بين القوة والروعة وسحر البيان وسمو المعنى والإعجاز فى التصوير. وليت المقام هنا يتسع لهذه الوقفات! ولكن كيف يتسع

(١) سورة الإسراء الآيات من ٢٣ إلى ٣٨.

والحديث عما تنطوي عليه هذه الآيات الست عشرة جدير بأن يستوعب مؤلفاً ضخماً.

القرآن وأدب النفس:

ولو شئنا أن نجيب بطرف مما في القرآن في أدب النفس، وتهذيب الأخلاق، لا نفصح المجال إلى ما لا نفصح له خاتمة الكتاب. وحسبنا أن نذكر أنه ما حض كتاب على الخير والفضل ما حض القرآن، وما ساء كتاب بالنفس الإنسانية ما ساء بها القرآن، وما تحدث كتاب عن البر والرحمة، وعن الإخاء والمودة، وعن التعاون والوفاق، وعن الصدقة والإحسان، وعن الوفاء وأداء الأمانة، وعن سلامة القلب وصدق الطوية، وعن العدل والمغفرة، وعن الصبر والثبات، وعن التواضع والإذعان، وعن الخير والمعروف، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالقوة والإقناع والإعجاز في الأداء، ما تحدث القرآن. وما نهى كتاب عن الضعف والجبن، وعن الأثرة والحسد، وعن البغض والظلم، وعن الكذب والنميمة، وعن التثدير والبخل، وعن البهتان واللمز، وعن الاعتداء والإفساد، وعن الغدر والخيانة، وعن كل رذيلة ومنكر، ما نهى القرآن، وبالقوة والإقناع والإعجاز التي نزل بها الوحي على النبي العربي، وما من سورة تتلوها إلا وجدت فيها من الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترجى إلى الكمال، ما تسمو به نفسك غاية السمو. اسمع إلى قوله تعالى في التسامح: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢). لكن هذا التسامح الذي يدعو القرآن إليه لا يدفع إليه ضعف، وإنما يدفع إليه الخلق وحرصاً على استبقاء الخيرات وترفع عن الدنيا. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَبَّةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنِ مِثْلِهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٣). ويقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّفَصَّائِرٍ﴾^(٤). وهذا صريح في أن الدعوة إلى التسامح دعوة إلى الفضل لا شيء من الضعف فيها، وإنما هي السمو النفساني الذي لا تنوبه شائبة.

هذا التسامح الذي يدعو القرآن إليه عن فضل، إنما أساسه الإخاء الذي جعله الإسلام دعامة حضارته. والذي أراد أن يكون إخاء بين الناس كافة في شارق الأرض ومغارها. والإخاء الإسلامي يتصافر فيه العدل والرحمة من غير ضعف ولا استكانة. وهو إخاء متساو في الحق والخير والفضل غير متأثر بالعاجلة من المنافع، بل يؤثر الآخرون به على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. والآخرون به يخشون الله ولا يخشون غيره. وهم لذلك الإباء والانتفة. وهم مع ذلك التواضع الجم. وهم السادقون الموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرون في البأساء والضراء وحين البأس، الذين

(١) سورة المؤمنون آية ٨٦.

(٤) سورة النحل آية ١٢٦.

(١) سورة المؤمنون آية ٨٦.

(٢) سورة فصلت آية ٣٤.

إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، لا يصغر أحدهم خذَه ولا يمشى في الأرض مرحًا، وقَاهم الله شُحَّ أنفسهم، لا يقولون على الله ولا على عباده الكذب، ولا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يستغفرون، يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس، يجتنبون كثيرًا من الظن ولا يتجسسون ولا يغتاب بعضهم بعضًا، لا يأكلون أموالهم بينهم بالباطل ولا يُدلون بها إلى الحكام ليأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم، تنزّه نفوسهم عن الحسد وعن الخديعة وعن لغو القول وعن كل منقصة.

النظام الخلقى والمنفعة:

وهذه الصفات والأخلاق التي يقوم عليها أدب النفس وتُذَبُّ الخلق على مقتضاها، إنما تستند - كما قدّمنا - إلى النظام الروحي الذي نزل به القرآن والذي يتصل بالإيمان بآله. وهذا هو الأمر الجوهريّ فيها. وهذا هو ما يكفل تمكّن هذا النظام الخلقى من النفس وبقائه مطهرًا من كل دنس، بعيدًا عن أن تتسرّب إليه أسباب تفسده. فالأخلاق التي تقوم على أساس من المنفعة وتبادُلها يُسرّع إليها الضعف ما اطمأنت إلى أن هذا الضعف لا يجزّ على منافعها أذى. وهذه الأخلاق القائمة على تبادل المنفعة يغلب في صاحبها أن يكون بآطنه غير ظاهره، ومكنون أمره غير ما يبدو للناس به؛ فهو يصطنع الأمانة وليس ما يمنعه أن يتخذها ذريعة لتصيد المنافع. وهو يتظاهر بالصدق، ولا يصدّه عن مجافاته شيء ما كان في مجافاته جلب منفعة له. أخلاق ذلك ميزانها ما أسرع ما يضعف صاحبها أمام المغريات، وما أسرع ما يجري وراء الأهواء والغايات!

وهذا الضعف هو الظاهرة البادية للعيان في عالمنا الحاضر. فما أكثر ما يسمع الناس بفنائح تقع في بلد أو في آخر من بلاد العالم المتحضّر، سببها الحرص على المال وعلى السلطان أكثر من الحرص على الخلق الكريم وعلى الإيمان الصادق. وكثيرون من هؤلاء الذين ينحدرون إلى مهاوى هذه المآسى الخلقية والذين يرتكبون أتعس الجرائم، تراهم أوّل أمرهم على خلق كريم، لكن المنفعة كانت أساس هذا الخلق. كانوا يرون النجاح في الحياة رهناً بالاستقامة، فاستقاموا لينجحوا، لا لأن الاستقامة متصلة بعقيدتهم؛ فهم يقفون عند حدودها ولو جنت عليهم. فلمّا رأوا الاستهانة بالاستقامة بعض أسباب النجاح في حضارة هذا العصر استهانوا بها. ومنهم من بطل أمره مستورًا عن الناس، فلا تناله الفضيحة وسيظل مرموقًا بعين الإكبار، ومنهم من ينكشف أمره فيفتضح وتصل به الفضيحة إلى الانتحار أحيانًا.

بناء النظام الخلقى على المنفعة يُعرّضه، إذًا، لهذا البلاء ما بين حين وحين. أمّا بناؤه على هدى النظام الروحيّ على نحو ما نزل به القرآن، فهو الكفيل ببقائه متينًا لا يتسرّب إليه وهن. فالثنية التي يصدر العمل عنها هي قوام هذا العمل والمقياس الذي يجب أن يقاس به. والرجل الذي يشترى ورقة نصيب لبناء مستشفى من المستشفيات لا يشترىها بنية فعل الخير بقصد الإحسان،

بل يشترها طمعاً في الربح. والرجل الذي يعطى لأن سائلاً ألحف عليه في المسألة فأراد التخلص منه، ليس كمن يعطى من تلقاء نفسه أولئك الذين لا يسألون الناس إلحافاً يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. والرجل الذي يقول الحق للقاضي مخافة عقاب القانون لشاهد الزور، ليس كمن يقول الحق لأنه يؤمن بفضيلة الصدق. ولن تكون الأخلاق التي تقوم على أساس المنفعة وتبادلها في متانة الأخلاق التي يؤمن صاحبها بأنها متصلة بكرامته الإنسانية، متصلة بإيمانه بالله، قائمة في نفسه على الأساس الروحي الذي يقوم عليه الإيمان بالله.

حكمة تحريم الخمر والميسر:

وقد حرص القرآن على أن يظلَّ حكم العقل سليماً، لا يتسرَّب إليه ما يؤثر في حسن تصوُّره الإيمان والخلق. لذلك اعتبر الخمر والميسر رجساً من عمل الشيطان؛ ولئن كان فيها منافع للناس لإثمها أكبر من نفعها، ومن ثمَّ وجب اجتنابها. فالميسر يصرف ذهن المقامر عما سواه، ويستفد من وقته ويغريه بما يلهيه عن موجب الخلق الفاضل. والخمر تُذهب العقل والمال على حدِّ تعبير عمر بن الخطاب حين دعا أن يبين الله فيها. وطبيعي أن يضلَّ حكم العقل إذا ذهب أو تغيَّر، وأن يهون ضلاله على صاحبه مؤاتاة الدنيَّة بدل أن يسمو عن أن يمرَّ به طيف الفاحشة.

القرآن والعلم:

هذا النظام الخلقى الذي نزل به القرآن للمدينة الفاضلة، لا يدعو إلى حرمان النفس مما خلق الله من أنعم، حتى لا يؤدي بها الحرمان إلى ما يؤدي إليه الإمعان في التقشف من انصراف عن التفكير في الكون، وزهد في العلم بما فيه. وهو لا يرضى أن يسلم الإنسان نفسه للاستمتاع حتى لا يفرقها في لجة الترف وينسيها كل ما سواه. بل هو يجعل الناس أمةً وَسَطًا، ويوجههم وجهة الفضيلة الخالصة ووجهة المعرفة للكون وكل ما فيه. والقرآن يتحدَّث عما في الكون من خلق الله حديثاً يوجهنا إلى غاية ما نستطيع معرفته من أمره. فهو يتحدَّث عن الأهلَّة، وعن الشمس والقمر؛ وعن الليل والنهار، وعن الأرض وما خلق فيها، والسماء وزينة كواكبها، وعن البحر يُزجِّي الله الفلك فيه لتبغى من فضله، وعن الأنعام التي تركبها وزينة، وعن كل ما في الكون من علم وفن. يتحدَّث القرآن عن هذا كله، ويدعو إلى النظر فيه وإلى دراسته، وإلى الاستمتاع بآثاره وثمراته شكرًا لله على نعمته. أمَّا وقد أدب القرآن الناس بأدبه ودعاهم إلى السعى وإلى الدأب لمعرفة كل ما في الكون، فما أجدرهم أن يصلوا من نظرهم من طريق العقل إلى غاية ما يستطيع العقل إدراكه؛ وما أجدرهم أن يقيموا نظامه الاقتصادي على أساس فاضل!

النظام الاقتصادي وتحريم الربا:

النظام الاقتصادي، الذي يقوم على ما قدَّمنا من أسس خلقية وروحية، جدير بأن يصل بالناس

إلى السعادة، ويأن يحو من الأرض الشقاء. فهذه المبادئ السامية التي يحرص القرآن على أن تحلّ من النفس محل العقيدة والإيمان تأتي على صاحبها أن يرى في الأرض شقاء أو نقصاً يستطيع إزالته ثم لا يزيله. وأوّل ما ينكره مَنْ تأدّب بهذا الأدب، الربا: أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة، ومصدر شقاء الناس جميعاً. ولذلك حرّمه الإسلام تحريماً قاطعاً. يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(١) ويقول: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(٢).

الربا في أقلّ صورته ضرراً:

تحريم الربا قاعدة أساسية للحضارة التي تكفل للعالم سعادته. فالربا في أقلّ صورته ضرراً وإنما هو اشتراك رجل لا يعمل في ثمرات عمل غيره بلا سبب إلا أنه أقرضه مالا، بحجة أنه أعان هذا الغير بما أقرضه على إدراك هذه الثمرات، وأنه لو لم يفعل لما استطاع مدينه أن يعمل وأن يجني هذه الثمرات. ولو أن هذه الصورة كانت وحدها صورة الربا لما كانت مع ذلك مسوّغة له. فلو أن الذي يُقرض المال كان قديراً على أن يُثمره بنفسه لما أقرضه غيره. ولو أنه أبقاه عنده لبقى معطلاً لا يؤقّ ثمرة، ولأكله صاحبه شيئاً فشيئاً. فإذا أراد الاستعانة بغيره في تمييز ماله مقابل الحصول على حظ من ثمرته، لم تكن وسيلة ذلك أن تُقرض لرأس المال فائدة معينة، وإنما تكون وسيلته أن يشارك صاحب المال من يُثمر هذا المال في مقابل حصته من الثمرة. فإن ربح المُثمر كان لرب المال من ذلك الربح نصيبه، وإن خسر كان عليه من الخسارة نصيبه. فأما أن تُقرض لرأس المال فائدة ولو لم يُفد من ثمره شيئاً فذلك هو الاستغلال غير المشروع.

ولا يعترض بأن المال عرض كغيره يؤجّر كما تؤجر الأرض أو كما تؤجر العداية، وأن فائدة النقد تقابل إيجار غيره من العروض؛ فبين المال الذي يصلح للإئتمان كما يصلح للتشهير والذي ينتفع به في الخير وتجلب به أسباب الإنم، وبين غيره من الأموال الثابتة والمنقولة فرق كبير. فالإنسان لا يستأجر أرضاً أو بيتاً أو دابة أو أيّاً من العروض إلا لينتفع به فيها يصلح له ما لم يكن سفيهاً أو معتوهاً لا تلزمه تصرفاته. فأما رءوس الأموال فأكثر ما تقتض في خير الوجه للتجارة. والتجارة عرضة دائماً للكسب والخسارة. أما إجارة العقار أو المنقول لاستغلاله فقل أن تتعرض للخسارة إلا في أحوال شاذة لا يوضع التشريع العادي لها. فإذا حدثت هذه الأحوال الشاذة تدخل المشروع بين الملاك والمستأجرين على نحو ما حدث في بلاد العالم كله غير مرّة لرفع الحيف عن المستأجر، وإنقاذه من أن يأكل المالك ثمره عمله. فأما تحديد فائدة النقد بسبعة أو تسعة في المائة أو

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥.

(٢) سورة الروم آية ٣٩.

بأكثر من ذلك أو أقل، فلا يغير من أن المقترض معرض لخسارة رأس المال نفسه فضلاً عن تعرضه لخسارة عمله. فإذا طوّل مع ذلك بالفائدة كان هذا هو الإثم، وكان من أثر ذلك أن تقوم الشحناء بين الناس مقام الإخاء، وأن تحلّ البغضاء بينهم محلّ المحبة؛ وذلك مصدر الشقاء، ومبعث ما تعانيه الإنسانية في عصرنا الحاضر من أزمات.

صور أخرى للربا:

وإذا كان هذا شأن الربا في أقل صورهِ ضرراً، وكانت هذه بعض النتائج التي تترتب عليه، فكيف به في صورهِ الأخرى حين يكون المقرض أدنى إلى الوحش المفترس منه إلى الإنسان، أو حين يكون المقرض في حاجة إلى المال لسبب غير التثمير؟ فقد يكون في حاجة إلى المال لإقامة أودهِ ولإفناقه في قوته وفي قوت عياله. حينذاك يكون إنظاره إلى ميسرة، حتى يتهيا له عمل يطمئن به إلى العيش ويستطيع أن يردّ منه ديونه، بعض ما توجهه الإنسانية في أولى مراتبها؛ وذلك ما يفرضه القرآن الكريم. أليس الإقراض بالربا في مثل هذه الأحوال عملاً وحشياً، وجريمة كجريمة القتل سواء؟! وأشنع من هذه الجريمة التحايل من طريق الربا على سلب ثروات الضعفاء الذين لا يحسنون القيام على أموالهم. هذا التحايل لا يقل إثماً عن السرقة الدنيئة، ويجب أن يعاقب من يقُدّم عليه عقاب السارق أو أشدّ منه.

الربا والاستعمار:

والربا هو بعض ما جرّ على العالم مصائب الاستعمار، وما أدّى الاستعمار إليه من شقاء. فالاستعمار يبدأ أكثر أمره بطائفة من المرابين أفراداً أو شركات ينزلون بلدًا من البلاد بقرضون أهلِهِ أموالهم، ثم يتغلغلون حتى يصلوا إلى وضع أيديهم على منابع الثروة فيه فإذا أفاق أهلُهُ وأرادوا الذود عن أنفسهم وأموالهم، استعدى هؤلاء الأجانب عليهم دولهم، فدخلت باسم حماية رعاياها، ثم تغلّلت هي كذلك، ثم وضع يدها مستعمرة، وفرضت إرادتها حاكمة، وحرمت الناس حرّيتهم، واستولت على الكثير مما رزقهم الله في بلادهم. لذلك تضع سعادتهم، ويخيم الشقاء على ربوعهم، ويمدّ اليأس يده إلى قلوبهم، ويرين الضلال على عقولهم، فتضعف أخلاقهم، ويتضعع إيمانهم، وينزلون عن مرتبة الإنسانية الصحيحة إلى مكان من الضعة لا يرضاه لنفسه من يؤمن بالله، وبأن الله وحده هو الذي تجب له العبادة.

والاستعمار مصدر الحروب، ومصدر الشقاء الذي ينيخ بكلّ كلفة على الإنسانية كلها في هذا العصر الحاضر. وما دام الربا، وما دام الاستعمار، فلا أمل في العود إلى عهد إخاء ومحبة بين الناس؛ ولا أمل في العود إلى مثل هذا العهد إلا أن تقوم الحضارة على الأساس الذي جاء به الإسلام، ونزل به الوحي في القرآن.

الاشتراكية الإسلامية:

وفي القرآن اشتراكية لم تُبحث بعدُ. وهي اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف، شأن الاشتراكية اليوم في الحضارة الغربية، وإنما تقوم على أساس خلقى سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. ومن اليسير أن يرى الإنسان قيام هذه الاشتراكية على الإخاء فيما فرضه القرآن من زكاة ومن صدقة، وأن يقتدر أنها ليست اشتراكية تسود فيها طائفة طائفة أو تتحكم بها جماعة في جماعة.

فالحضارة التي صور القرآن لا تعرف سيادة ولا تحكما، بل أساسها الإخاء الصادق عن إيمان ثابت بهذا الإخاء؛ إيمان يجعل من التحدث بنعمة الله إعطاء الفقير والبائس والمحروم ما يحتاجون إليه من غذاء ومأوى ودواء وتعليم وتهذيب، وإعطاءهم ذلك من غير من ولا أذى. بذلك يزول الشقاء ويَتِمَّ الله نعمته على الناس وتسودهم السعادة.

لا تلغى التملك إطلاقاً:

والاشتراكية الإسلامية لا تقتضى إلغاء التملك إطلاقاً، كما تقتضيه الاشتراكية الغربية. وقد أثبت الواقع في روسيا البلشفية وفي كل بلاد سادتها الاشتراكية، أن إلغاء التملك أمر غير ممكن. لكن المرافق العامة يجب أن تكون ملكاً عاماً مشاعاً بين الناس جميعاً. وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة.

ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام: فكان من بين أصحاب النبىِّ غُلَّةٌ في الاشتراكية يجعلون كل ما خلق الله ملكاً مشاعاً ومرفقاً عاماً ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء، لا يجوز تملك شيء منه. وإنما يقع التملك على الثمرات ينال منها كل على قدر سعيه وبجهوده. وكان منهم من لا يرون هذا الرأي، ويقولون بجواز تملك الأرض، ويعتبرونها من العروض التي يقع عليها التبادل.

قاعدة اشتراكية مقررة:

على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقررة اليوم في أوروبا، تقضى بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسد حاجاته. فلكل مسلم حق في أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول ما دام لا يجد عملاً يرتزق منه، أو ما دام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله. وما دامت قواعد الخلق التي قرّر القرآن هي ما قدّمنا فلن يكذب أحد، ولن يزعم أحد أنه متعطل على حين هو في الحقيقة لا يريد أن يعمل، ولن يزعم أحد أنه لا يجد من عمله ما يكفيه على حين

يدرّ عليه الكفاية. وقد كان أمراء المؤمنين في الصدر الأول يفرضون على أنفسهم أن يتفقدوا أمور المؤمنين ليبدلوا للمحتاج منهم حقه، وليدفعوا عنه عادية الحاجة.

الاشتراكية قوامها الإخاء:

ومن ثم نرى الاشتراكية في الإسلام ليست اشتراكية المال وتوزيعه، وإنما هي اشتراكية عامة أساسها الإخاء في الحياة الروحية، وفي الحياة الخلقية وفي الحياة الاقتصادية. وإذا كان المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فالمرء لا يكمل إيمانه إذا لم يحض على طعام المسكين ولم ينفق للخير العام مما رزقه الله سرًا وعلانية. وكلما ازداد المرء إيثارًا على نفسه كان أقرب إلى الله وأدنى إلى رضاه، وكانت نفسه أكثر طمأنينة وقلبه أشد غبطة. وإذا كان الله قد جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات، وكان ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر فإن الناس لا صلاح لهم إلا إذا وقر صغيرهم كبيرهم، ورحم كبيرهم صغيرهم، وأعطى غنيهم فقيرهم، ابتغاء وجه الله وشكرًا لله وتحديثًا بنعمته. ما أحسبنا في حاجة إلى ذكر ما جاء في القرآن من تفاصيل النظام الاقتصادي في الموارث والوصية والعقود والتجارة وما إليها. فمحاولة الإشارة أوجز الإشارة إلى ما جاء فيه من هذه الشئون الفقهية ومن الشئون الاجتماعية، تقتضى عدة فصول كهذا الفصل. وحسبنا أن نذكر أن ما ورد فيه من ذلك لم يرد إلى اليوم ما هو خير منه في أية شريعة من الشرائع. بل إن الإنسان لتأخذ منه الدهشة كل مأخذ حين يجد بعض تفاصيل، كالكتابة في الدين إلى أجل مسمى إلا أن تكون تجارة، وكإرسال الحكمين إذا وقع الشقاق بين الزوجين خيفة الفرقة، وكالقيام بالإصلاح بين طائفتين اقتتلوا، ومقاتلة الطائفة التي تبغى ولا ترضى الصلح حتى تفى إلى أمر الله - تأخذ الإنسان الدهشة إذ يرى هذه الأمور، ويوازن بينها وبين ما ورد في الشرائع المختلفة، فإذا أحسن التشريع ما وافق هذه القواعد التي وضعها القرآن. فلا عجب إذا - وما ذكرنا عن الربا وعن الاشتراكية الإسلامية هو أساس النظام الاقتصادي المصور في القرآن، وهذه التفاصيل التشريعية هي خير ما وصل التشريع إليه في مختلف العصور - أن تكون الحضارة الإسلامية هي الحضارة الجديرة بالإنسانية الكفيلة حقًا بإسعادها.

ما ربما يعترض به الغرب:

ربما ذهب بعض كتّاب الغرب، بعد اطلاعهم على ما قلّمنا من تصوير القرآن للحضارة وأساسها، إلى أن طبيعة الإنسان لا تألف هذا النظام الذي يكلفها من السمو إلى ما فوق فطرتها مالا تطيق. وأن نظامًا ذلك شأنه ليس مقدورًا له أن يحيا أو أن يطول بقاؤه. فالإنسان في رأيهم إنما يحركه الخوف والرجاء، وتحركة الأهواء والشهوات، شأنه في ذلك شأن الحيوان، وهو بعد حيوان ناطق. فحمل الإنسانية على الأخذ بنظام كالذي صورّه الإسلام للحضارة أمر غير مستطاع، أو هو

على الأقلّ غير ميسور. وغاية مانطبق في نُظْم هذه الحياة للجماعة الإنسانية أن نهذب الشهوات، وأن نُحسن توجيه فكرة الخوف والرجاء من الناحية الاقتصادية الماديّة البحتة. فأما ماوراء ذلك فأمر لا قِبَل للجماعة به. ولعل الدليل عندهم على ذلك أن النظام الإسلامي، على النحو الذي صوّره القرآن وحاولت إيجازه هنا، لم يستقرّ في الجماعة الإسلامية نفسها إلا أيام النبي وفي الصدر الأوّل. ولو أن النظام كان صالحاً للحياة لا ستقرّ في تلك الجماعات الإسلامية الأولى ولا تنتشر منها في أنحاء العالم. أما وذلك لم يحدث، بل حدث نقيضه، فالزعم بأن هذا النظام أجدر بالإنسانية وأكفل بسعادتها زعم لا يصدّقه الواقع.

إدحاض الاعتراض:

ويكفي لإدحاض هذا الاعتراض اعتراف أصحابه بأن النظام الإسلامي قام وطبّق في عهد النبي وفي الصدر الأوّل. ولقد كان محمد خير أسوة في تطبيقه. واتبع خلفاؤه الأوّلون أسوته الحسنة وساروا بهذا النظام إلى حيث يجب أن يبلغ كماله. لكن الدسائس والأهواء مالبث بعد ذلك أن طفت شيئاً فشيئاً على أسسه الصحيحة من طريق الإسرائيليات تارة، ومن طريق الشعوبية أخرى وكان من أثر ذلك أن عاد الناس شيئاً فشيئاً إلى تغليب المادة على الروح، والحيوانية على الإنسانية، وإلى الوقوف في دائرة الحدود التي تقف المدنية الحاضرة فيها اليوم، والتي يجرّ على الإنسانية شراً أهوال الشقاء.

أسوة محمد:

كان محمد خير أسوة في تطبيق الحضارة كما صوّرها القرآن. وقد رأيت من ذلك خلال هذا الكتاب كيف كان إخاؤه لبني الإنسان جميعاً إخاء تاماً صادقاً. كان إخوانه بمكة متساوين وإياه في احتمال البأساء والضراء؛ وكان هو أشدّ منهم للبأساء والضراء احتمالاً فلما هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار فيها إخاء جعل له حكم إخاء الدم. وكان إخاء المؤمنين عامّة إخاء محبة لإصلاح دعامة الحضارة الناشئة في ذلك العهد؛ وكان يقوّي هذا الإخاء إيمان صادق بالله بلغ من قوّته أن كان محمد يسمو به إلى الاتصال بالله حل شأنه. وموقفه في غزوة بدر حين ناشد ربه النصر الذي وعده إياه، وجعل يستنجزه هذا النصر، ويذكر له أن فئة بئر إن هُزمت لم يعبّد، مظهر قوئ من مظاهر هذا الاتصال. ومواقفه في غير بدر من المواطن تدل على أنه كان دائم الاتصال بالله في غير الساعات التي ينزل فيها عليه الوحي. وكان اتصاله هذا من طريق إيمانه الصادق إيماناً جعله يستهين بالموت ويُقبل عليه ويتمناه. فكل صادق في إيمانه لا يهاب الموت بل يتمناه. فلكل أجل كتاب والناس أينما يكونوا يدرّكهم الموت ولو كانوا في بروج مشيدة. وهذا هو الذي جعل محمداً يثبّت حين فرّ المسلمون منهزمين عندما بدأت غزوة حُنين، ويدعو الناس إليه غير آبه للموت المحيط به وبالعديد القليل الذين ثبتوا معه. وهذا الإيمان هو الذي جعله يعطى عطاء من لا يخشى

فاقة، ويبرُّ اليتيم وابن السبيل وكل بائس وكل محروم، ويسمُو إلى ذروة ما دعا إليه كتاب الله من فضائل. ذلك كله، واحتذاء المسلمين مثاله في الصدر الأول، جعل الإسلام يُسرِع إلى الانتشار في العقود الأولى من السنين التي تلت اختيار الله نبيُّه إلى جواره؛ وينتشر لينشر في كل قطر رُفرت عليه أعلامه أسمى ما قرَّرتَه هذه الحضارة، لينشئ بذلك من هذه الأمم المنحلة المتهذبة شعوباً قوية ودُّولاً ذات بأس تُقبل على العلم وتصل من طريقه إلى الاتصال بكثير من أسرار الكون، وتبدع لذلك في الحياة من المنشآت ما تفاخر به هذا العصر الحاضر الذي يزعمونه عصر النور والعلم من غير أن ينجي على سعادة الإنسانية بسبب عبادة المادة وضعف الإيمان بالله.

العلماء المضلون:

وإنما اندسَّت في الحضارة الإسلامية أهواء الشعوبية والإسرائيليات، كما اندسَّت في غيرها من الحضارات لأن طائفة من العلماء الذين يجب عليهم أن يكونوا ورثة الأنبياء، قد آثرت السلطان على الحق، والجاه على الفضيلة، فاتخذت من علمها وسيلة تضلل بها سواد الناس وتشتتهم، كما يضلُّ كثيرون من علماء هذا العصر سواد أهله وتشتته. هؤلاء العلماء هم أنصار الشيطان، وهم لذلك أثقل الناس تبعاً أمام الله. وأول واجب على كل عالم مخلص حقاً لعلمه والله أن يحاربهم وأن يستأصل بذور فسادهم. لأنهم يفتنون الناس عن الحق والهدى ويضلُّونهم عن سواء السبيل. وإذا جاز أن يكون هؤلاء العلماء المضلُّين مجال حيث تقتتل الكنيسة والعلم على السلطان في الغرب، فلا مجال لهم في البلاد الإسلامية حيث تزأج الحضارة بين الدين والعلم، وحيث يكون الدين بغير علم كُفراً، والعلم بغير دين تجديفاً. ولو أن العالم استظل بحضارة الإسلام على ماصورها القرآن، ولم تجن عليه فتوح المغول وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام ولم يعملوا بمبادئه ولا عملوا على نشرها، بل اتخذوه وسيلة لحكم سواد المسلمين على مبادئ تناقض مبادئ الإخاء الإسلامي، لتبدل الأمر في العالم غير الأمر، ولنجت الإنسانية من كثير مما ترزح اليوم تحته من أهوال الشقاء.

كيف تقوم الحضارة الإسلامية في عالمنا الحاضر:

وإنني لواقئ أن تسود الحضارة التي صورها القرآن العالم إذا قام جماعة من العلماء يدعون إليها على طريقة علمية بعيدة عن الجمود والتعصب. فهذه الحضارة تخاطب القلب كما تخاطب العقل، وتكفل إقبال الناس من كل الأمم عليها إقبالاً لن تستطيع مطامع أصحاب المطامع صدّه. ولا يطلب إلى هؤلاء العلماء أكثر من أن يكونوا مؤمنين حقاً، يدعون الناس إلى الله وإلى هذه الحضارة مخلصين له الدين حنفاء. يومئذ يسعد الناس بالإخاء في الله كما سعادوا به في عهد النبي.

وما كان في عهد النبي وفي الصدر الأوَّل، ينهض دليلاً على ماقلته في مقدِّمة هذا الكتاب من أن البحث العلمي في الثورة الروحية التي أفاض محمد على العالم ضياءها جدير بأن يهدي الإنسانية

طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تتلمسها، وأنا لا أرتاب في ذلك لحظة. لكن لعلماء الغرب بعض اعتراضات يُبدونها، ينسبونها إلى الروح الذي صدرت عنه فكرة الحضارة الإسلامية، ويقيّمون على أساسها حكمهم بأن الإسلام كان سبباً في تدهور الأمم التي دانت به. وأهمّ هذه الاعتراضات ما يذهبون إليه من أن الجبرية الإسلامية أضعفت همة المسلمين، وقعدت بهم عن الكفاح في الحياة، فهانوا وذُلُّوا. ودَفَع هذا الاعتراض وما يجري مجراه هو موضوع المبحث الثاني من هذه الخاتمة.

٢ - المستشرقون والحضارة الإسلامية

اعتراض المستشرقين - إيرفنج والجبرية الإسلامية:

واشِنْجْتُون إيرفنج من أعلام الكتاب الذين فاخرت بهم الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم في القرن التاسع عشر المسيحي. وقد كتب سيرة النبي العربي ﷺ في كتاب عرض فيه هذه السيرة عرضاً فيه قوّة بيانية تملك قارئه في كثير من أجزائه، وفيه إلى جانب هذه القوة إنصاف أحياناً وتحامل أحياناً أخرى. وقد وضع للكتاب خاتمة عرض فيها لقواعد الإسلام وما حسبه المصادر التاريخية التي استندت إليها هذه القواعد، وفي مقدمتها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ثم قال: «القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الإسلامية هي الجبرية. وقد أقام محمد جُلّ اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شئونه الحربية. فقد قرر أن كل حادث يقع في الحياة قد سبق في علم الله تقديره، فُكِّب في لوح الخلد قبل أن يبرأ الله العالم، وأن مصير كل إنسان وساعة أجله قد عُنِّت تعييناً لامرء له، فلا يمكن أن تتقدّم أو أن تتأخّر بأيّ مجهود من مجهودات الحكمة الإنسانية أو بعد النظر. بهذا الاقتناع كان المسلمون يخوضون غمار المعارك دون أن ينال منهم الخوف. فما دام الموت في هذه المعارك هو عدل الاستشهاد الذي يسرع بصاحبه إلى الجنة فقد كانت لهم الثقة بالفوز في حالي الاستشهاد أو الانتصار.

«هذا المذهب الذي يقرر أن الناس غير قادرين بإرادتهم الحرّة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب، يعتبره بعض المسلمين منافياً لعدل الله ورحمته. وقد تكوّنت عدّة فرق جاهدت وما تزال تتجاهد لتهوين هذا المذهب المحير وإيضاحه. لكن عدد هؤلاء المتشككة قليل. وهم لا يعتبرون من أهل السنة.

«وقد أُلهم محمد ﷺ مذهب الجبرية من وحى الساعة، فكان ذلك إلهاماً معجزاً لحدوثه في أنسب أوقاته. فقد حدث ترواً بعد غزوة أحد المنكودة التي ذهبت فيها أرواح عدد غير قليل من أنصاره، ومن بينهم عمه حمزة. عندئذ، وفي ساعة وجوم وهَلَع تحطّمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به،

أصدر هذا القانون يُنبئهم أن لا مفر لإنسان من أن يُتوفى في ساعة أجله، في فراشه كان أو في ساحة الوغى.

«أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشياً؛ إذ يقتنعهم عن يقين بالقىء لمن يبقى، والجنة لمن يموت! ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يقلبه غالب؛ لكنها احتوت كذلك السم الذى يقضى على سلطانه. فمنذ اللحظة التى كَفَّ فيها خلفاء النبى عن أن يكونوا غزاة فاتحين، ومنذ أغمدوا سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام، فقد أزهف السلم أعصاب المسلمين كما أزهفها المتاع المادى الذى أباحه القرآن، والذى يفصل فصلاً حاسماً بين مبادئه ودين المسيح دين الطهر والإيثار. فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه وما لا مفر منه، وما يجب الإذعان له واحتماله، ما دام كل جهد وكل حكمة إنسانية عبثاً لا نفع له. ولم تكن قاعدة «أعني نفسك يُعنيك الله» مما يرى أتباع محمد تنفيذه، بل كان عكسها نصيبهم. من ثمَّ تحق الصليب الهلال. وبقاء الهلال إلى اليوم في أوربا حيث كان يوماً ما بالغا غاية القوة إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها. ولعل الهلال باق ليكون دليلاً جديداً على أن «مَنْ أَخَذَ بالسيف فبالسيف يُؤخذ».

خطأ هذا الاعتراض - القرآن وإرادة الإنسان في أعماله:

هذا كلام واشنجتون إيرفينج. وهو كلام رجل لم تمكنه دراسته من إدراك روح الإسلام وأساس حضارته، فذهب هذا المذهب الخاطيء في تأويل مسألة القضاء والقدر وكتاب الأجل. ولعل له من العذر أنه وقف في بعض الكتب الإسلامية على ما جعله يذهب هذا المذهب: فأما القرآن فلا تقاس إلى جانب ما ورد فيه عبارة «أعني نفسك يُعنيك الله»، من حيث القوة في الدعوة إلى التعويل على الذات، وأن الناس مجزيون بأعمالهم وبآلتها التى تصدر هذه الأعمال عنها. قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢). وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٣). وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٤).

ومثل هذا في القرآن كثير. وهو صريح في الدلالة على أن إرادة الإنسان وعمله هما مصدر ميثوبته وعقابه. وقد حَضَّ الله الناس أن يسعوا في مناكب الأرض وأن يأكلوا من رزقه، وأمرهم بالجهاد في

(٣) سورة الشورى آية ٢٠.

(٤) سورة الرعد آية ١١.

(١) سورة يونس آية ١٠٨.

(٢) سورة الإسراء آية ١٥.

سبيله بآيات قوية غاية القوة تلوث شيئاً منها في أثناء هذا الكتاب. وهذا لا يتفق وما يقوله إيرفنج ومايقول بعض رجال الغرب من أن الإسلام دين تواكل وقعود، وأنه يعلم أهله أنهم لا يملكون لأنفسهم بعملهم نفعاً ولا ضرراً، فلا فائدة لهم من السعى والإرادة؛ لأن السعى والإرادة معلقان بشيئة الله؛ فإذا سعينا وكان مقدراً ألا يشر سعينا لم يشر، وإذا لم نسع وكان مقدراً أن نصبح أغنياء أو أقوياء أو مؤمنين أصبحنا كذلك من غير سعى ولا عمل. فالآيات التي قدمنا تناقض هذا الرأي وتنفيه.

القرآن والقضاء والقدر:

ألم يعتمد هؤلاء الذين ينسبون تواكل المسلمين في هذه العصور الأخيرة إلى دينهم على ما جاء في القرآن من آيات القدر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾^(١). وكقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢). وكقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٣). وكقوله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

إن يكن ذلك ما يعتمدون عليه فقد فاتهم معنى هذه الآيات وأمنائها، وما تصوره من صلة وثيقة بين العبد وربّه، ودعاهم ذلك إلى الظن بأن الإسلام يدعو إلى التواكل مع أنه الدين الذي يدعو إلى الجهاد وإلى الاستشهاد وإلى الإباء والأنفة، كما يقيم حضارته على أساس من الإخاء والرحمة.

والواقع أن هذه الآيات وما جرى مجراها تصور حقيقة علمية قررتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائهم وأطلقوا عليها مذهب الجبرية كذلك، ونسبو الجبر فيها إلى سنة الكون ومجموع الحياة فيه بدل أن ينسبوها إلى الله وعلمه وقدرته. وهذا المذهب الذي تفرقه كثرة فلاسفة الغرب أقل سعة وتسامحاً وانطباقاً على خير الجماعة الإنسانية من المذهب الفلسفي الذي يُستخلص من القرآن الكريم، كما سنرى من بعد. وهذه الجبرية العلمية تذهب إلى أن ما لنا من اختيار في الحياة إنما هو اختيار نسبي ضئيل القدر وأن القول بهذا الاختيار النسبي يرجع إلى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحية علمية أكثر مما يرجع إلى حقيقة علمية أو فلسفية. فلو لم يتقرر مذهب الاختيار لتعذر على الجماعة أن تجد أساساً تقيم عليه تشريعها وحدودها، وتنظم بذلك حياتها، وتفرض به على كل إنسان جزاء تصرفاته جزاء جنائياً أو مدنياً. صحيح أن بين العلماء والفقهاء من لا يقيمون أساس الجزاء على الجبر ولا على الاختيار، وإنما يقيمون على ما يحدث من رد الفعل الذي تقوم به الجماعة محافظة على كيانه، كما يقوم الفرد بمثله محافظة على كيانه. وسيان عند الجماعة إذ تقوم برد الفعل

(٣) سورة الحديد آية ٢٢.

(١) سورة آل عمران آية ١٤٥.

(٤) سورة التوبة آية ٥١.

(٢) سورة الأعراف آية ٣٤.

هذا أن يكون الفرد مختاراً وأن يكون غير مختار. على أن الاختيار في التصرف ما يزال الأساس للجزاء عند أكثر الفقهاء، ودليلهم عليه أن مسلوب الحرية والاختيار، كالمجنون والصغير والسفيه، لا يُجْزَى عن عمله ما يُجْزَى الرشيد الذي يميز بين الخير والشر. فإذا تخطينا هذه الاعتبارات العملية في الفقه والتشريع وأردنا أن نخلص إلى الحقيقة العلمية والفلسفية، ألفتنا الجبرية هي هذه الحقيقة. فليس لأحد اختيار للعصر الذي يولد فيه، ولا للأمة التي يولد من أبنائها، ولا البيئة التي ينشأ بينها، ولا لأبويه وفقرها وغناها وفضلها ونقصها، ولا لأنه ذكر أو أنثى، ولا لما يحيط به من أحداث لها. أغلب الأمر، الأثر الأكبر في توجيه أعماله وحياته. وقد عبر الفيلسوف الفرنسي «هيوبلنت تين» عن هذا المذهب بقوله: «المرء ثمرة بيئته». وقد ذهب غير واحد من العلماء والفلاسفة في تأييد ذلك إلى حد القول بأن علمنا لو استطاع أن يصل من معرفة سنن الحياة الإنسانية وأسرارها إلى مثل ما وصل إليه من معرفة سنن الأفلاك، لاستطاع أن يحدد بالدقة مصير كل فرد وكل أمة، كما يحدد الفلكيون بالدقة مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر. مع ذلك لم يقل أحد في الغرب ولا في الشرق بأن هذا المذهب الجبري يحول بين المرء والسعي للنجاح في الحياة أو يحول بين الأمم والثوب إلى خير مكان، ولم يقل أحد بأن هذا المذهب يؤدي إلى تدهور الأمم التي تأخذ به. هذا مع أن المذهب الجبري في الغرب لا تؤيده في السعي والعمل آيات كالتى تلوت من آيات القرآن عن تبعه الإنسان عن عمله ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾. أفلا ينهض هذا وحده دليلاً على تحامل المستشرقين الذين يزعمون أن جبرية الإسلام قد أدت إلى تدهور الأمم الآخذة به؟

بل إن الجبرية الإسلامية لأكثر حُصاً على السعي إلى الخير والفضل وإلى ابتغاء الرزق من الجبرية الغربية. فكلتاها متفقة على أن للكون سنناً لا تحوّل لها ولا تبدل، وأن ما في الكون جميعاً خاضع لهذه السنن، وأن الإنسان خاضع لها خضوع سائر ما في الكون. لكن الجبرية الغربية تخضع المرء لبيئته ووراثته خضوع إذعان لا محيص عنه ولا مفر منه وتجعل إرادة الإنسان بعض ما يخضع لبيئته، فلا سبيل له لذلك إلى أن يغير نفسه. فأما القرآن فيدعو إرادة كل فرد لتتوجه بحكم العقل إلى ناحية الخير، ويذكر لهم أنه إذا كان قد قدر لهم الخير فيها كسبت أيديهم، وأنهم لا ينالون هذا الخير اعتباطاً من غير سعي.

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

ففى مقدورهم إذاً أن يفكروا وأن يتدبروا بعد أن هداهم الله بكتبه إلى الواجب عليهم، وبعد أن دلهم أنبياءه ورسله على طريق الحق، وبعد أن دُعوا إلى النظر في الكون وتدبر سننه ومشيته الله فيه. ومن يؤمن بهذا، ومن يوجه نفسه وجهته، فلن يصيبه إلا ما كتب الله عليه. فإذا كان قد كتب عليه

أن يموت في سبيل الحق أو الخير الذي أمر الله به فلا خوف عليه، وهو وأمثاله أحياء عند ربهم يُرزقون. أية دعوة إلى الإقدام وإلى السعى وإلى الإرادة كهذه الدعوة؟ وأين فيها ما يزعم إيفنج والمشتشرقون من تواكل؟!

التواكل ليس من التوكل على الله في شيء. فالتوكل على الله لا يكون بعود المرء والتخلف عن أمر ربه، بل بالعمل الجِدِّي لما أمر به. وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. فالعزم والإرادة يجب إذا أن يسبقا التوكل. وأنت ما عزمْتَ ثم توكلت على الله بالغ نهاية أمرك بفضل منه. وأنت ما ابتغيت وجهه وحده، وما خشيته وحده، وما سلكت سبيله وحده، مهتد إلى الخير بحكم سنة الله في الكون، وسنة الله لا تحويل لها ولا تبديل. وأنت بالغ هذا الخير، أدى بك سعيك إلى النجاح والفوز، أو أدى بك إلى الموت. وما ينالك من الخير فمن عند الله. أما ما يُصيبك من مكروه فيما كسبت يداك وباتباعك سبيلاً غير سبيل الله. فالخير كله بيد الله، والضلال والشر من نزغ الشيطان وعمله...

أما علم الله بكل ما يقع في الوجود قبل أن يبرأ الله الوجود، وأنه جل شأنه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١). فيرجع إلى أن الله برأ للكون سنناً لا تحويل لها ويجب أن تنشأ عنها آثارها. وإذا كان العلماء يذهبون إلى ما قدمنا من أن العلم الواقعي يستطيع إذا عرف أسرار الحياة الإنسانية وسنها، أن يعرف ما قدر لكل فرد ولكل أمة على وجه اليقين، كما يعرف مواقيت الكسوف والخسوف، فإن الإيمان بالله يقتضي حتماً الإيمان يعلمه بكل شيء من قبل أن يبرأ العالم. وإذا كان المهندس الذي يصنع «تصميم» دار أو قصر ويراقب تنفيذ هذا التصميم، يستطيع أن يعلم مدى ما يعيش هذا البناء وما قد تعرض له أجزاؤه المختلفة على مضى السنين، وكان علماء الاقتصاد يذهبون إلى أن السنن الاقتصادية تهدمهم على سبيل القطع إلى معرفة ما ينشأ في حياة العالم الاقتصادية من أزمة أو رخاء، فإن مناقشة علم الله بكل صغيرة وكبيرة مما خلق في الكون تجديف لا يقبله عقل منطقي. وهذا العلم لا يصح أن يقف الناس عن التفكير في مآلهم، والعمل جهد الطاقة لاتباع جادة الحق وتنكب طريق الضلال؛ فعلم الله غيب عليهم وهم مهتدون آخر الأمر إلى الحق ولو بعد حين. والله قد كتب على نفسه الرحمة، وهو يقبل توبة التائب من عباده ويعفو عن كثير. وما دامت رحمته وسعت كل شيء فليس لإنسان أن ييأس من الاهتداء إلى الحق والخير ما دام ينظر في الكون ويتدبر ما فيه. وليس لإنسان أن يقطع من رحمة الله إذا هداه نظره آخر الأمر إلى سبيل الله. وإنما الوليل لمن ينكر إنسانيته ويستكبر عن النظر والتفكير ابتغاء الهدى. أولئك يعاندون الله ولا يبتغون وجهه، وأولئك ختم الله على قلوبهم، فلم يهتدوا ولم يهتدوا.

أفيري أولئك المشتشرقون سمو الجيرية الإسلامية وانفساح مداها؟! وهل يرون فساد

ما يزعمونه من أنها تدعو إلى القعود عن السعى أو قبول المذلة أو الرضا بالخضوع لغير الله؟! ثم هي من بعد تجعل باب الرجاء في مغفرة الله ورحمته مفتوحاً دائماً لمن تاب وأناب. فما يزعمونه من أنها تدعو المسلم إلى النظر لما يصيبه من خير أو شر على أنه بعض ما كتب الله فيقعد لذلك صابراً محتلاً الضر والمذلة، بعيداً عن الحقيقة في أمر هذه الجبرية التي تدعو إلى دوام الدأب ابتغاء رضا الله، وإلى عزم الأمر قبل التوكل على الله. فإذا لم يوفق الإنسان للخير اليوم، فليعمل لعله يوفق له غداً؛ وله من دائم الرجاء في الله أن يسد خطاه أو يتوب عليه وأن يغفر له، خير حافز إلى التفكير المتصل والسعى الدائب لبلوغ الغاية من رضا الله، إياه يعبد وإياه يستعين، منه جل شأنه الهدى، وإليه يرجع الأمر كله.

ما أعظم القوة التي تبعثها هذه التعاليم السامية إلى النفس؛ وما أوسع أفق الرجاء الذي تفتحه أمامها؛ فأنت موفق للخير ما ابتغيت بعملك وجه الله. وأنت إن أضلك الشيطان مقبولة توبتك ما غالب عقلك هواك فغلبه وعاد بك إلى الصراط المستقيم. والصراط المستقيم هو سنة الله في خلقه، سنة نهتدي إليها بقلوبنا وعقولنا، ونتفكرنا فيها خلق الله، وبدأ بنا في السعى لمعرفة أسرارهِ. فإذا ظلَّ من الناس بعد ذلك من يشرك بالله، ومن يبغى الفساد في الأرض، ومن يُعْمِيه الاستئثار عن كل معنى من معاني الأخوة، فإنما هو المثل الذي يضربه الله للناس ليروا عاقبة أمر الله فيه لتكون لهم العبرة من مثله. وهذا عدل الله في الناس ورحمته بهم جميعاً، لا يحول دونها ولا يحد منها أن يضلَّ ضال فيناله العذاب جزاء ما قدمت يداه.

ولكن! لماذا يفكر الناس ولماذا يعملون والموت لهم بالمرصاد فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون؟ ولماذا يفكر الناس ولماذا يعملون وقد كتب للسعيد منهم أن يكون سعيداً وعلى الشقي منهم أن يكون شقياً؟ هذا تكرار للسؤال الذي أجبتنا عنه سقناه قصداً، لننظر في مسألة كتاب الأجل من ناحية أخرى: فما كتب الله إنما هو سنة الكون من قبل أن يبرأ الكون، ومن قبل أن يقول له كن فيكون، ولا أدل على دقة هذا التصوير من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. ومعنى هذا أن الرحمة صفة لله وسنة من سنته في الكون وليست فرضاً فرضه على نفسه؛ فالفرض لا يجوز عليه جلَّ شأنه. ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. فإذا ضلَّ قومٌ لم يبعث الله لهم رسولاً قضت سنة الله ألا يعذب منهم أحداً. وعلم الله بآثار سنته في الكون يدهي لكل من آمن بأن الله هو الذي خلق الكون. فإذا بعث الله قوم رسولاً ثم قضت سنة الكون ومشيئة الله فيه أن يضرب إنسان من هؤلاء القوم على الضلال بعد إذ دُعي إلى الهدى، فإساءته على نفسه وهو لغيره عبرة ومثل.

من ضل فقد ظلم نفسه:

ومن السذاجة القول بأن هذا الذي ضلَّ فجوزى بضلاله قد ظلم ما دام الضلال قد كتب عليه. نقول من السذاجة بدل أن نقول من التجديف؛ لأن أبسط قسط من التفكير يهدينا إلى أن من ضلَّ

يظلم نفسه ولا يظلمه الله. وقد يكفيننا في بيان ذلك مثل الأب البار العطوف يدنى النار من طفله، فإذا أراد أن يسكها بعد بها عنه مشيراً إليه أنها تحرقه. ثم هو يدنيها منه مرة بعد مرة، ولا بأس بأن تحترق إصبع الطفل كي يكون له من حسه الذاق ما ينبيهه إلى الحقيقة الملموسة التي تظل ماثلة أمامه طيلة حياته. فإذا أقدم بعد رشاده فأمسك بالنار أو ألقى بنفسه فيها فجزأوه ما يصيبه منها، ولا تثريب على أبيه، ولا يطلب أحد إلى هذا الأب أن يحول بينه وبينها. كذلك مثل الأب الذي يدل ابنه على مضرة القمار أو الخمر، فإذا بلغ الابن رشاده واجترح ما نهاه عنه أبوه فأصابه الشر لم يكن أبوه ظالماً إياه، وإن كان في مقدوره أن يحول بينه وبين ما يصنع. وأبوه أبعد عن ظلمه إن كان في ترك الابن يجترح من ذلك ما يجترح مُزْدَجِرٌ وعبرة لأهله وإخوته، فإذا كان الأهل والإخوة يعدّون بالمئات أو بالآلوف في مدينة كثرت فيها أسباب الغواية بطبيعة نواميسها، فمن الخير ومن العدل أن يكون فيها يصيب بعض هؤلاء من الآثار المحتومة جزاء أعمالهم ما تستقيم به أمور هذه الجماعة على أسفٍ منها لما أصاب الظالمين من أبنائها. وهذه أبسط صور العدل على ما تنصّره في مجاعتنا الإنسانية، فما بالك بها حين تنصّورها بالنسبة للعالم كله وملايين الملايين من خلّاتقه في لا نهايات الزمان والمكان! إن ما يُصيب فرداً أو جماعة بظلمهم، في هذه الصورة التي يكاد يعجز عن تصورها خيالنا، إنما هو العدل في أبسط صورته.

مثلنا في حياتنا الشخصية:

لو أننا نسبنا الظلم لأب ترك ابنه الذي ضلّ يلقى جزاء ضلاله ما دام الضلال قد كتب عليه، لحق علينا أن ننسب الظلم لأنفسنا لأننا نقتل برغوثاً يؤذينا اتقاء وخوفاً من عدوى ينقلها إلينا قد تكون وبالا علينا وعلى الجماعة إذا انتقلت منا إلى غيرنا، أو لأننا نفتت حصة في المراهة أو الكلى خيفة ما تجره علينا من آلام وشقوة، أو لأننا نبتر عضواً من أعضائنا مخافة أن يستشري منه الفساد إلى سائر الجسم فيقتله. ولو أننا لم نفعل، لأن ذلك قد كتب علينا، ثم شقينا أو هلكنا فلا نلوم إلا أنفسنا بما يصيبنا من سوء ما دام الله قد فتح لنا باب الشفاء كما فتح للمذنب باب التوبة. والجاهلون وحدهم هم الذين يقبلون الأثم والشقاء زعماً منهم أنه كتب عليهم؛ وذلك حماقة منهم وسخف. فكيف بنا ونحن نرى قتل البرغوث واستئصال الحصة وبتر العضو المريض عدلاً كل العدل، وإن كان قد كتب في سنة الكون أن يؤذى البرغوث وأن يقتل إلى الإنسان العدوى وأن تقسّد الحصة وأن يُفسد العضو المريض سائر الجسد فيقضى عليه - كيف بنا ونحن نرى هذا ألا نعتبر سذاجة بلهاء لا مسوغ لها إلا الاستئثار الضيق الأفق أن نقف من أمر هذه العدالة عند ذواتنا، وألا نعدّينا إلى الجماعة الإنسانية كلها، وألا نعدّينا أكثر من ذلك إلى الكون كله؟!

عمل الخير عبادة:

وما البرغوث وما الحصة وما الإنسان إلى جانب الكون؟! بل ما الإنسانية كلها إلى جانب الكون؟ هذا الكون الفسيح يحاول خيالنا العاجز تصوير حدوده بالزمان والمكان وبالأزل والأبد،

وبأمثال هذه الألفاظ التي لا سبيل لنا غيرها إلى أن نرسم لأنفسنا صورة من الكون ناقصة غاية النقص، يتفق نقصها مع ما أوتينا من العلم، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً. وهذا القليل قد هدانا إلى أن سنة الله في الكون سنة نظام وعدل لا تبدل لها ولا تحوّل. وإنما نهتدي إلى هذه السنة وفد جعل الله لنا السمع والأبصار والأفئدة لنشهد بديع صنعهِ ونقف في الكون على سنته، فنسبح بحمده ونعمل الخير بأمره. وعمل الخير عن إيمان هو أرقى مظهر لعبادة الله لقرم يعقلون.

الموت خاتمة حياة وبداية حياة:

فأما الموت فخاتمة حياة وبداية حياة. لذلك لا يخرج منه إلا الذين ينكرون الحياة الآخرة ويخشونها لسوء صنيعهم في الحياة الدنيا. أولئك لا يتمنون الموت بما كسبت أيديهم؛ وإنما يتمنى الموت صدقاً المؤمنون حقاً والذين عملوا في الدنيا صالحاً.

يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(١). ويقول جل شأنه مخاطباً نبيه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَأَلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢). ويقول ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِشَرِّ مَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٣). ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

هذه الآيات قوية غاية القوة تنقضي ما يقال عن دعوة الجبرية الإسلامية للقعود وعدم السعي. فانه خلق الموت والحياة ليلبوا الناس أيهم أحسن عملاً. وعملهم في الحياة، وجزاؤهم عنه بعد الموت. فإذا لم يعملوا، وإذا لم يعيشوا في مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله، وإذا لم يصدقوا بما آتاهم الله، وإذا لم يؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، عصوا الله، وكان من يفعل ذلك كله أحسن منهم عند الله عملاً وأحسن في الآخرة جزاء ومثوبة. والله يبلونا في الحياة بالخير والشر فتنة. وعلينا أن نغير بعقولنا بين الخير والشر. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. ولئن لم يصبنا إلا ما كتب الله لنا ل يكون ذلك أشد إمعاناً بنا في سبيل الخير لنرى الخير. وسواء علينا بعد ذلك اختارنا الله إليه أقوىاء عاملين مجاهدين، أم رُددنا إلى أرذل العمر لكيلا نعلم من بعد علم سيئاً. فليس مقياس الحياة عدد السنين التي يقضى امرء فيها، وإنما مقياسها ما يقوم به الإنسان فيها من أعمال باقيات صالحات. والذين يتوفون في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم أحياء بيننا بذكرهم.

(٣) سورة الجمعة الآيات من ٥ إلى ٧.

(٤) سورة الأنعام آية ٦٠.

(١) سورة الملك آية ٢.

(٢) سورة الأنبياء آيتا ٣٤، ٣٥.

وكم من أساء باقية على مرّ الدهور والقرون لأن أصحابها وهبوا أنفسهم وبجهوداتهم للخير؛ فهم يبتنا معشر الأحياء وإن كان الله قد اختارهم إليه منذ مئات السنين.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. هذا هو الحق، وهو وحده الذى يتفق مع سنة الكون. فللإنسان أجل لا يعدوه، كما أن للشمس والقمر مواقيت للكسوف والخسوف لا تتغير، لا تستقدم ولا تستأخر. وهذا الأجل المحتوم أدعى إلى أن يسارع الإنسان إلى الخيرات، وأن يعمل صالحاً، وأن يبذل فى ذلك كل جهده؛ فهو لا يدري متى تكون منيته، فإذا جاءت فجأته ما قَدَّم. وإن أمامنا كل يوم لدليلاً على أن الأجل قَلْبَرٌ لَا مَفْرَءَ مِنْهُ، فمن الناس من يأتيه الموت فجأة ولا يعرف أحد له مرضاً. ومنهم المريض الذى يكافح مرضه ويئن من أهواله عشرات السنين حتى يُرَدَّ إلى أرذل العمر. وطائفة من الأطباء اليوم يقولون إن الإنسان يولد وفى تكوينه جرثومة انتهاء حياته، وإن الأمد الذى تعمل فيه هذه الجرثومة لإتلاف غايتها يمكن معرفته لو استطعنا معرفة الجرثومة نفسها. ومعرفة هذه الجرثومة ليس بالأمر المستطاع، فهى قد تكون مادية فى الجسم كأمته فى عضو من أعضائه الرئيسية أو غير الرئيسية، وقد تكون معنوية فى التفكير متصلة بتلايف المخ تدفع صاحبها إلى المغامرة وإلى المخاطرة، أو إلى الشجاعة والإقدام. والله الذى أحاط بكل شيء علماً، عنده علم الساعة التى تحين فيها منية كل إنسان بحكم سنة الكون التى لا تحوّل لها ولا تبدل.

رسل الله من أبناء الشعب:

ومن آيات رحمته جلّ شأنه أنه لا يعذب حتى يبعث رسولاً يحدى الناس إلى الحق ويبين لهم سبيل الخير، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة، لكنه يؤخرهم إلى أجل مسمى ليسمعوا إلى الرسل فيتبعوا الهدى ولا تفرّهم الحياة الدنيا بزخرفها.. ولم يبعث الله رسلاً من الملوك ولا من الأغنياء وذوى الجاه ولا من العلماء؛ وإنما بعثهم من أبناء الشعب. فإبراهيم نجار وأيوبه نجار. وعيسى نجار الناصرة. وغير واحد من الأنبياء كانوا رعاة غنم؛ ومن هؤلاء خاتمهم عليه الصلاة والسلام. وإنما يبعث الله رسلاً من أبناء الشعب ليدلّ عباده على أن الحقيقة ليست فى ملك الأغنياء ولا الأقوياء بل هى فى ملك من يبتغى الحق لوجه الحق وحده. والحقيقة الأزلية الخالدة أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم؛ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ولا تحجزون إلا ما كنتم تكسبون. والحقيقة الكبرى أن الله حق، لا إله إلا هو.

الموت خاتمة حياة وبدء حياة؛ خاتمة الحياة الدنيا وبدء الحياة الآخرة. ولسنا نعلم من أمر الحياة الدنيا إلا قليلاً. لسنّا نعلم إلا ما تتصل به حواسنا، وترشدنا إليه عقولنا، وتكشف لنا عنه قلوبنا. أمّا الحياة الآخرة فلا علم لنا من أمرها إلا ما علّمنا الله منه. وسنن الكون فيها غيَّب علينا، علّمه عند عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. فحسبنا ما ذكر الله فى كتابه العزيز من أمرها وأنها دار

الجزء، ولنعد أنفسنا في الدار الدنيا بعملنا وبعزمتنا أمورنا وتوكلنا بعد ذلك على الله لهذا الجزء العدل: فأما ما وراء ذلك فأمره الله وحده.

أفيري الذين يلقون لفّ واشنطون إيرفتج من المستشرقين وغير المستشرقين مبلغ خطئهم في تصوير الجبرية الإسلامية؟ إننا لم نثبت هنا شيئاً غير ما ورد في القرآن الكريم؛ لأننا لا نريد أن نضع الأمر موضع مجادلة في آراء المتكلمين والمتصوفة وغيرهم من فرق المسلمين وفلاسفتهم. وإيرفتج أبلغ خطأ حين يزعم أن القضاء والقدر وكتاب الأجل إنما نزل ما نزل من القرآن فيه بعد غزوة أحد ومقتل حمزة سيد الشهداء فيها. فمن الآيات التي اقتبسنا هنا آيات مكية نزلت قبل الهجرة وقبل أن تبدأ غزوات المسلمين. وإنما يقع إيرفتج ومن على شاكلته في هذا الخطأ لأنهم لا يعنون أنفسهم ببحث مسألة هذا مبلغ خطرها بحثاً علمياً دقيقاً، بل يصورون لأنفسهم عن الإسلام الفكرة التي تتفق مع ميولهم المسيحية ثم يلقون لها الدليل بما تهوى أنفسهم، ظناً منهم أن دليلهم يقنع قراءهم ثم لا يفنده بعدهم أحد.

الفكرة الفلسفية في الجبرية الإسلامية:

ولو أدرك المستشرقون الجبرية الإسلامية على نحو ما صورناها هنا لقرءوا فكرتها الفلسفية البالغة غاية السمو، العميقة غاية العمق، والتي تصوّر الحياة تصويراً يصف أدق النظريات العلمية والفلسفية التي وصل إليها التفكير في مختلف عصوره، وما ناله فيها من تطوّر وتقدّم. وهذه الفكرة الفلسفية الإسلامية فكرة توفيقية لا تضيق بالجبرية العلمية، ولا بالعالم كإرادة وتقتل، ولا بالتطور المنشئ^(١)، بل هي تسلك هذه المذاهب جميعاً في نظامها على أنها بعض سنن الكون والحياة. ولئن لم يتسع المقام هنا لبسط هذه الصورة لأحاولنّ مع ذلك إيجازها بكل ما أستطيع من دقة ووضوح. وأحسب الذين يتلون ما أكتب يوافقونني على أن سموّ الفكرة وانفساح مداها وعمقها قد بلغ الغاية من كل ما نعرف من نظريات حتى اليوم، وأنها تفسح الطريق إلى ما قد يسمو إليه الفكر الإنساني من بعد.

وأريد قبل أن أبدأ هذا الإيضاح الوجيز أن أثبت هنا ملاحظتين أرجو ألا ينساهما في هذا المقام أحد: أولاً أنني لا أقصد من ذلك إلى معارضة نظرية مسيحية. فما جاء به عيسى قد أقرّه الإسلام كما ذكرت غير مرة في غضون هذا الكتاب. وإنما جاء الإسلام جامعاً ومتوجّهاً للنبوءات والرسالات التي سبقتها. ولقد أثبتت الأناجيل قول المسيح لأصحابه: «ما جئت لأنقض التاموس ولكن جئت لأكمّله». كذلك أثبت القرآن إيمان المسلمين بإبراهيم وموسى وعيسى والنبين من قبل. وإنما جاء الإسلام مكملًا لما أرسلهم الله به، مصححًا لما حدث من تحريف اتباعهم الكلم عن

(١) الجبرية العلمية، والعالم كإرادة وتقتل، والتطور المنشئ، مذاهب فلسفية غريبة يقول بأولها الفلاسفة النواصيون، (Positivistes)، ويقول شوبنهاور بالتأني، ويقول برجنس بالتأني ولا يتسع المقام لشرحها.

مواضعه والثانية أن المذهب الفلسفى الإسلامى الذى استنبطته من القرآن قد سبقنى إليه غيرى، ولكن على نحو غير النحو الذى أقرره اليوم؛ وإنما اهتمت في هذا النحو بهدى القرآن ونهجت فيه نهج الطريقة العلمية الحديثة. فإن وفقنى الله للصواب فله جل شأنه الفضل والمنة. وإن جفانى التوفيق في شيء منه كان من أكبر التحدث بنعمة الله أن يهدينى أولو العلم إلى ما جفانى التوفيق فيه.

وأول ما يقرره القرآن أن الله في الكون سنناً ثابتة لا تحويل لها ولا تبديل. والكون ليس أرضنا وما عليها وكفى، ولا هو محصور فيما يقع عليه حسناً من كواكب وأفلاك، وإنما الكون مجموع ما خلق الله من محسوس وغير محسوس، حاضر وغيب. وحسبك أن تصوّر هذا لتدرك حقاً أننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً. فهذا الأثير بيننا وبين الكواكب، وهذه الكهرباء التى غلأ الأثير وغلأ أرضنا، وهذه الأبعاد الشاسعة التى تفصل بيننا وبين الشمس وما هو أبعد من الشمس من أفلاك. وما وراء الأفلاك التى تبعد عن الشمس بألوف السنين الضوئية؛ ثم ما وراء ذلك من لا نهايات لا سبيل لخيالنا أن يحيط بها وعند الله علمها - هذا كله يجرى على سنّة ثابتة لا تتغير. وما نعرفه من هذا كله معرفة علمية، على حدّ تعبيرنا اليوم، قليل يختلط فيه الخيال بالواقع، ثم يتضائل الواقع إلى جانب الخيال حتى يبلغ غاية الضآلة، ثم يبقى هذا الواقع مع ذلك غاية ما نعلم وما نقيم عليه أقيستنا وما نقرّر على ضوئه ما تسميه سنن الكون والحياة. ولو أننا أردنا أن نطلق للخيال عنانه لتتصوّر ضآلة هذا الذى نعرف لا نفسح أمامنا مجال الأمثال بما يضيق عنه هذا المقام. اقترض مثلاً أن أهل المريخ أقاموا عندهم «مذبحاً» قوته مائة مليون كيلوات لسمعونا أهل الأرض ما يدور عندهم وليرونا إياه من طريق (التلفزيون) أترانا بعد ذلك نستطيع أن نمسك علينا عقولنا؟ والمريخ ليس أبعد الكواكب عنا ولا أشدها ازوراراً عن الاتصال بنا.

وهذا الكون الذى لم نؤت من علمه إلا قليلاً يؤثر كل ما فيه في وجود أرضنا وما عليها. فلو أن واحداً من هذه الأفلاك اختلف بقلّ من الله مداره، لتغيّرت سنّة الكون، ولتغيرت لذلك حياتنا القصيرة الضئيلة المتأثرة بكل ما حولنا، وبأتفه ما حولنا. وهى أكثر تأثراً وخضوعاً بطبيعة الكون لعظائم ما في الكون وجلالته. وهى في تأثرها ذاك قد تسلك سبيل الخير وقد تنحرف عنها. وهى في سلوكها هذه السبيل وفي انحرافها عنها لا تندفع في هذه أو تلك من الناحيتين بحكم ما يؤثر فيها من عوامل الحياة وحده، بل بحكم استعدادها كذلك لتلقّى آثار الحياة. وسنطأ هنا على ذاتها في تلقى هذه الآثار. ورب عامل معين أثر في نفوس كثيرين آثاراً مختلفة، فاندفعت كل واحدة منها إلى ناحية، كانت إحداها الفاصل بين الخير والشر، ثم كانت سائرهما درجاتٍ نحو الخير ودرجاتٍ نحو الشر.

الخير والشر:

فما في الحياة من خير أو شر إنما هو أثر لما يقع بين عوامل الحياة والنفس الإنسانية من تفاعل. ومن ثم كان الخير والشر بعض ما في الكون من آثار سننه الثابتة، وكأنا لذلك من مستلزمات وجوده، كما أن السالب والموجب من مستلزمات وجود الكهرباء، وكما أن وجود بعض المكروبات من مستلزمات الحياة لجسم الإنسان.

وليس شيء شراً لذاته ولا خيراً لذاته، بل للغاية التي يوجّه إليها، وللأثر الذي يترتب عليه. فما يكون شراً أحياناً يكون ضرورة ملحة وخيراً محضاً أحياناً أخرى. ومن المدمرات التي تستعمل في الحروب لإهلاك ملايين بنى الإنسان وتخريب أهدع ما أقام الناس من الآثار ما له أيام السلم أكبر الفائدة. فلولاً الديناميت لتعذر شق الأنفاق ومدّ السكك الحديدية خلالها؛ ولتعذر الكشف عن المناجم التي تحتوى أثمن الكنوز وأنفس الأحجار والمعادن. والغازات الحارقة التي يلقي المحاربون قذائفها على الوداعين من أبناء الأمة التي تحاربهم، والتي تعتبر لذلك عاراً وشناً على الإنسانية ومظهراً من مظاهر وحشيتها وجبنها؛ هذه الغازات تصلح في السلم لأغراض نافعة أعظم النفع، منقذة للإنسانية من كثير من الأمراض المعدية وأهوالها. فمن هذه الغازات ما تنقى به المياه من المكروبات الضارة كغاز الكلور، ومنها ما يصلح في حياة السفن إذ يقتل بعضها الجرذان فيها، ويدلّ بعضها على مواطن الغازات الأخرى التي تعرّض حياة الملاحين للخطر.

وقديماً خُيّل إلى الناس أن من الحشرات والطيور والحيوان ما لا فائدة البتة من وجوده، ثم تبين لهم بعد البحث والدرس ما لهذه الحشرات والطيور والحيوان من فائدة للإنسان، حتى لقد صدرت في ممالك مختلفة قوانين تحمى هذه الخلائق من القتل أو الصيد تقديراً لخيرها للإنسانية. والذين درسوا هذه الخلائق قد لاحظوا أنها أشدّ حرصاً على مسالمة الحياة المحيطة بها في حدود الاحتفاظ بوجودها كي تقوم بقسطها من الخير الذي فُطرت على القيام به، وأنها لا تؤذى إلا دفاعاً عن نفسها حين يهاجمها مهاجم أو يُغريها مُغرٍ بالأذى.

أعمال بنى الإنسانية:

وأعمالنا نحن بنى الإنسان ليست خيراً كذلك لذاتها ولا شراً لذاتها، بل للغاية التي توجّه إليها والأثر الذي يترتب عليها. أليس القتل إثماً محرّماً! لكن الله مع ذلك إذ يحرم القتل يقول: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾. والقتل بالحق لا إثم فيه. ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب﴾. والجلاء الذي يقتل مجرماً حكم عليه بالقتل، والرجل الذي يقتل نفساً دفاعاً عن نفسه، والجندي الذي يقتل دفاعاً عن وطنه، والمؤمن الذي يقتل حتى لا يفتره أحد عن دينه، هؤلاء جميعاً لا يرتكبون إثماً ولا معصية حين يقتلون. هم إنما يؤدّون لله حقاً فرضه الله عليهم ولهم عنه

جزاء المحسنين. وما يقال في القتل يقال كذلك في غيره من الأعمال المتداولة بين الخير والشر. فالعالم الذى يكتشف بعض المدمرات للدفاع عن وطنه أو لما تفيد هذه المدمرات العالم حين السلم، وصانع الأسلحة وكل عامل وكل إنسان على الأرض، إنما يعمل الخير أو يرتكب المعصية حسب الوجهة التى يولى وجهه شطرها والأثر الذى يترتب على عمله.

باب التوبة:

هذه إرادة الله وهى سنته فى الكون، ولما كان الله قد خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات فى الاستعداد لإدراك هذه السنة، فجعل منهم من يحصرون كل نشاطهم فى البقعة التى ينشأون فيها وهى تمييزها والقيام عليها، وهب آخرين موهبة الصناعة، وجعل لغير هؤلاء وأولئك من المواهب فى الأعمال والفنون والعلوم ما لا يتيسر لهم معه الاهتمام إلى هذه السنة، ولما كانت معرفتها أساسية للإنسان كى يمتدى فى الحياة، فقد وهب لأفراد موهبة النبوة واصطفى آخرين لرسالاته ليبينوا لنا الخير والشر، وهب لآخرين مواهب العلم والمنطق ليكونوا ورثة الأنبياء فيهدونا إلى ما يجب علينا أن نعمله وما يجب علينا أن نتجنبه، وركب فىنا قوى العقل والعاطفة لنذكر ما يلقى إلينا من التعاليم، فنروض أنفسنا برياضتها كى نحسن التوجه فى الحياة إلى الخير وكى نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. فإذا التبس الأمر مع ذلك على بعض الناس فارتكبوا المعصية فجزتهم الجماعة عن معصيتهم، احتفاظاً بكيانها أن تحبى هذه المعصية عليه، لم يكن ذلك سداً بينهم وبين التوبة والآوبة إلى الحق. فمن ارتكب الخطيئة أو الإثم بجهالة ثم حاسب نفسه وغرماً ما بها وعاد إلى الله طائعاً منيباً، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وتاب عليه. ومن ثم كان للخاطئ والآثم أن يستفيد من غير الأيام وأن يظهر قلبه، وأن يرجع إلى طريق الحق تائباً فيقبل الله منه؛ إنه هو التواب الرحيم.

هذا التصوير للحياة. يوفق ما بين مذاهب فلسفية شتى بحسب أصحابها أن لا سبيل إلى التوفيق بينها. فهو صريح فى أن الوجود إرادة ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. والكون يمثل ما يقع عليه الحس وما ينقطع الحس دونه. وللكون سنن ثابتة نستطيع فى حدود علمنا الواقعى أن نقف منها على ما يهدين العقل إليه، وما يزداد بازدياد مجهودنا للكشف عنه. والخير قوام الكون. ولكن الشر يغالبه فيه ويكاد يتغلب عليه أحياناً. ومقابلة الخير للشر هى هذا التطور المنشئ الذى خطا بالكون وبالإنسانية خطوات واسعة حتى بلغت من طريقها إلى الكمال ما بلغته اليوم.

التطور الروحى فى الحياة:

وأنت ترى أن هذا التصوير يتطوى على فكرة التقدم إلى الكمال كخير ما عرف التفكير الفلسفى تصويراً من نوعه. يدلك على ذلك، فضلاً عما سبق تصوير القرآن للتطور الروحى فى الحياة منذ خلق الله الأرض ومن عليها. فقد خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى

يخاف الله لم ير، حين قال له أخوه: لأقتلنك، أن يستغفر الله له، بل قال له: إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وهذه غلبة الطبيعة الإنسانية ومنطق القصاص على السما الروحي وجمال العفو.

وكثر بنو آدم على الأرض وأرسل الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين. لكنهم أصرّوا على ضلالهم، وبقيت حياتهم الروحية جامدة وقلوبهم مُقفلة. أرسل نوحًا إلى قومه فنادى فيهم: أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم، فكذبهم قومه وما آمن معه إلا قليل. وتواترت النبوءات بعد نوح، وتواترت الرسائل بالدعوة إلى الله وحده؛ فتغلب جمود الناس عليها وقعدت عقولهم دون إدراكها واتخذوا من مظاهر الخلق آلهة. وكلما جاءهم رسول من عند ربهم ففريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون. لكن جمودهم تزعزع بتواتر الرسائل التي كانت بذورًا صالحة أبطأ نباتها، غير أنها تركت مع ذلك أثرها. وهل ذهبت كلمة الحق ضياعًا أو هباء في يوم من الأيام! ولئن دفع الغرور الناس لينأوا بجانبهم عنها وليستهزئوا أكثر الأمر بصاحبها لقد كانوا يستعيدونها إذا خلّوا إلى أنفسهم يسألونها عن مبلغ الحق فيها. وكان الذين يدركون ما تنطوي عليه من حق قلّة وكانوا يستكبرون.

كانت مصر على عهد الفراعنة يؤمن كهنتها بالوحدانية، ويعلمون الناس غيرها ويعبدون لهم آلهتهم. وإنما دعاهم إلى ذلك حرصهم على الاحتفاظ بسلطانهم على الناس وجاههم فيهم؛ حتى لقد حاربوا موسى وأخاه هارون حين جاءوا يدعوان فرعون إلى الله ويطلبان إليه أن يرسل معها بني إسرائيل.

ويذكر القرآن نبأ هؤلاء الأنبياء الذين تعاقبوا على الإنسانية أجيالا طويلاً فظلت ممعنة في الضلال إلا قليلا هدى الله إلى الحق. وفي قصص الأنبياء ظاهرة يقف عندها النظر، ويحسّ بنا، لبيانها، أن نرجع إلى عهد موسى وعيسى وما كان بعدهما من رسالة محمد عليه السلام.

حكم العقل والإيمان بالخوارق:

هذه الظاهرة هي الانفصال أو ما يشبهه أول الأمر بين حكم العقل ومنطقه والإيمان القائم على المعجزات والخوارق. فقد أزر الله كلا من أنبيائه بمعجزة لقومه حتى يصدقوه، ولم يصدق مع ذلك منهم إلا قليل. ولم تكفهم عقولهم ومنطقها ليدركوا أن الله خلق كل شيء، وأنه الملك الحق لا إله إلا هو.

ولما قضى الله أن يبعث موسى من مصر، خرج منها قبل بعثه خائفًا يترقب حتى ورد ماء مدين وتزوج من أهلها. فلما أذن الله له أن يعود ﴿... نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ

وَلَيْ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ. اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١١﴾. ولم يؤمن سحرة فرعون بدعوة موسى حتى لَقِفَتْ عصاه ما صنعوا. إذ ذاك أَلْقَى السحرة سُجَّدًا قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. ومع ذلك ظل بنو إسرائيل في غيهم حتى قالوا لموسى أرنا الله جهرةً. ولما قُبِضَ موسى عادوا يذكرون عبادة العجل. وجاءهم أنبياءهم من بعد موسى يدعونهم إلى الله فقتلهم بغير حق. فلما عادوا من بعد ذلك إلى ذكر الله انتظروا أن يقوم فيهم نبي يرد إليهم ملكًا يحكمون به العالم حكمًا زمنيًا.

وليس هذا الحادث بالبعيد عنا في ظلمات التاريخ؛ فهو لا يرجع إلى أكثر من خمسة وعشرين قرناً. وهو مع ذلك صريح في الدلالة على غلبة منطق الحس على منطق العقل، والتصور المادى على التصور الروحى؛ وبعد أن انقضت عليه خمسة قرون أو ستة جاء عيسى يدعو قومه إلى الله يؤيده الله بروح القدس من عنده. ولما كان عيسى يهوديًا، حَسِبَ اليهود أول ما نعى إليهم خبره، أنه نبىهم المنتظر ليرد إلى أرض المَعَاد ملكها المضاع، وكانوا أكثر لَهْفَةً على هذا الملك بعد أن طال عليهم حكم الرومان وقسوتهم. على أنهم انتظروا ليتبينوا الحق من أمر عيسى. أفتراه خاطبهم بمنطق العقل وحده؟ كلا! بل كانت المعجزة طريقه إلى إقناعهم. ولئن صحت الرواية المسيحية لقد كان تحويله الماء خمرًا في عُرس «قانا الجليل» أول ما لفت نظر الناس إليه. وبعد ذلك كانت معجزة الأرغفة والسمكات ومعجزات إبراء المرضى وإحياء الموتى هى التى طَوَّعت له أن يقوم بتعليم الناس من طريق القلب والعاطفة دون أن يكون للعقل ومنطقه الحظ الأول في تعاليمه. لكن هذا الحظ كان مع ذلك أوفر من حظ مَنْ سَبَقَهُ من الرسل. كانت تختلط في تعاليمه دعوة العاطفة إلى الرحمة والمغفرة والمحبة بدعوة عقلية غير مدعومة بالدليل المنطقي إلى ملكوت الله. فإذا تسرب الشك إلى النفوس في أمر هذه الدعوة العقلية أذن الله بمعجزة جديدة تزيد الناس بالمسيح تعلقًا وعليه إقبالًا. وكان من معجزاته إبراء الأبرص والأكمه وإحياء الميت أن بلغت بن أتبعوه في تعلقهم به مدى بعيدًا، حتى حسبه بعضهم ابن الله، وحَسِبَ آخرون أنه الله تجسد على الأرض ليفتدى خطايا البشر. وهذا صريح في الدلالة على أن منطق العقل لم يكن إلى ذلك العهد قد بلغ من النضج ما يجعله وحده، قديرًا على إدراك الحقيقة العليا في أمر الخائى جل شأنه، وأنه أحد صمد لم يند ولم يؤلد ولا يكن له كُفُوًا أحد.

النوم العقلية:

في هذا الزمن الذى جاء فيه موسى وعيسى كانت علوم مصر الفرعونية وفلسفتها وتشريعها قد انتقلت إلى اليونان وإلى رومية، وغرت بسلطانها ومنطقها الأفكار، وأوحت إلى الفلسفة اليرنانية

وإلى الأدب اليوناني خير ما فيها. وكانت بقطة العقل ومنطقه قد نُبّهت الناس إلى أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلاً عقلياً على شيء. وكان من أثر ذلك أن جعلت الفلسفة اليونانية من جوارها للمسيحية في مصر وفلسطين والشام ما عُدّ مذاهب المسيحية، على ما أشرنا إليه في أثناء هذا الكتاب. وقد كتب الله في سنته أن يكون منطق العقل تاج هذه الحياة الإنسانية، على ألا يكون منطقاً جافاً خالياً من العاطفة ومن الروح، بل على أن يكون منطقاً توفيقياً، ينتظم العقل والعاطفة والروح جميعاً حتى يستطيع اكتناه غاية ما تستطيعه الإنسانية من أسرار الكون. وكذلك كتب الله في لوح هذا الوجود أن يقوم نبي الإسلام داعياً إلى الحق بمنطق العقل توازره العاطفة والروح، وأن تكون معجزة هذا المنطق البالغة في الكتاب الكريم الذي أوحاه إلى نبيه، به أكمل الله للناس دينهم وأتمّ عليهم نعمته، وبه توجّ الرسلات وختمها. وإنما كان ذلك بعد هذا المجهود العظيم المتصل الذي قام به الأنبياء والرسل ووجهوا به الإنسانية في تطورها الروحي حتى بلغت الدعوة الإسلامية إلى صفاء التوحيد وإلى الإيمان بالله وحده.

ولتكمل هذه العقيدة أحيط الإيمان بها بما ذكرنا من فرائض في البحث الأول من هذه الخاتمة. وليلصل المؤمن إلى الذروة منها يجب أن يدأب للوقوف على سنة الله في الكون دأباً يتصل حتى يبعث الله الأرض ومن عليها. وهذا ما بدأ به المسلمون في الصدر الأول وفي العصر الذي تلاه حتى آن للزمن أن يدور دورته.

هذه الحجج التي قُمتُ تدحض ما آوّل به المستشرقون الجبرية الإسلامية، وما أولوا به ما جاء في القرآن عن القضاء والقدر وكتاب الأجل. وهي تثبت بوجه لا يحتمل أي ريب، أن الإسلام دين سعى وكفاح وجهاد في نواحي الحياة الروحية والعلمية والدينية والدنيوية جميعاً، وأن الله كتب في سنة الكون أن الإنسان إنما يُجْزَى بعمله، وأنه جلّ شأنه لا يظلم أحداً ولكن الناس أنفسهم يظلمون وهم يظلمون أنفسهم حين يظنون أنهم يصلون إلى رضا الله بالقعود والتواكل باسم التوكل على الله.

المال والبنون والباقيات الصالحات:

ومع أن هذه الحجج دامغة في الغرض الذي سقتها له، فإنني لا أستطيع أن أغفل حجة أخيرة أعتبرها بالغة، تلك هي الحجة المستفادة من قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾^(١).

فليس شيء في الحياة يحفزنا للعمل والسعي كما يحفزنا كسب الرزق وطلب المال. ففي سبيل الله ينفق الأكثرون من الناس أعظم الجهد ويقومون بما يفوق الطاقة أحياناً. ونظرةً يليقها الإنسان

(١) سورة الكهف آية ٤٦.

على عالمنا الحاضر تنبئ عما يهتز به هذا العالم من دأب ومشقة، ومن سلم وحرب، ومن ثورات واضطرابات، في سبيل المال. في سبيله تُقلب الملكيات جمهوريات، وفي سبيله تُراق الدماء وتزهق الأنفس والبنون! أفلاذ أكبادنا التي تمشي على الأرض، أية مشقة لا تحتملها من أجلهم! وأتى مرَّ لا يحلو مذاقه ما دام يؤدي إلى طمأنينتهم وإلى كفالة رخائهم ومجدهم!! كل عسير يصبح في جانب سعادتهم يسيراً، وكل صعب يصبح في سبيل رضاهم سهلاً. بل إن من الناس من يستهين في سبيل المال والبنين بما يحسبه مستحيلاً عليه لولا المال والبنون. ومن الناس من يُبالغ في ذلك لُبُضحى في سبيله بهناءته، بل بحياته.

ومع ذلك فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا. وليست الزينة شيئاً إلى جانب الجوهر. ولا يضحيّ بالجوهر في سبيل الزينة إلا الجُهلاء والحمقى: إلا المرأة التي تستهين بصحتها لتظهر جميلة سريعة أو سويغات من زمان، وإلا الشاب المغرور الذي يضحي بعقله ويكرامته وسط صحب يسخرون منه حين يحسب أنه سيدهم لأنه يبعثر بينهم ماله، وإلا أمثال هؤلاء من المأفونين الذين يخدعهم المظهر عن الحقيقة، واليوم عن الغد. والذين يسعون لزينة الحياة من مال وبنين وينسون ما سواهما ليسوا أقل من هؤلاء أفناً وحمقاً. فالمال والبنون زينة. أمّا جوهر الحياة فالباقيات الصالحات من أعمال الخير. ولهذه الباقيات الصالحات يجب أن نبذل من السعى والجهد أكثر مما نبذل لزينة الحياة من مال وبنين.

أرأيت سمو الغاية التي تصوّرها هذه الآية من الذكر الحكيم؟ فأنت إذا بذلت جهودك ودمك في سبيل الزينة؛ وجب أن تبذل روحك وقلبك في سبيل الجوهر، ووجب أن تخضع الزينة للجوهر ووجب لذلك أن تجعل كل حياتك وكل مالك وكل بنيك مقصوداً بها هذا الجوهر من الباقيات الصالحات، فهي خير عند ربك ثواباً وخير أملاً.

كيف انقلب تفكير المسلمين:

كيف انقلب الأمر في تفكير المسلمين من هذا المنطق السليم الواضح إلى اعتقادات لا تتفق معه في شيء؟ أشرنا إلى ذلك لمأماً في البحث الأول من هذه الخاتمة حين أشرنا إلى تبدل الأمر عند المسلمين بحكم الغزاة الذين توالوا على الإمبراطورية الإسلامية منذ انتهاء العهد العباسي، كما أشرنا في تقديم الطبعة الثانية إلى ما كان من تبدل من الشورى في الصدر الأوّل إلى ذلك الملك العضوض أيام الأمويين، فالحق الإلهي أيام العباسيين. وندع الكلمة الآن في شيء من تفصيل ذلك إلى المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ إذ يقول في كتاب «الإسلام والنصرانية» ما نصه:

أقوال الشيخ محمد عبده:

« كان الإسلام ديناً عربياً، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً بعد أن كان يونانياً، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له. ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي؛ لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبد بها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك، وفي سعة أحكام الإسلام ما يبيح له ذلك. هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجباً.

« خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه، وبئس ما صنع بأتمه ودينه. أكثر من ذلك الجند الأجنبي وأقام عليه الرؤساء منه؛ فلم تكن إلا عشية أوضاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة في قبضتهم. ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هدّبه الدين، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم. لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم. وكثير منهم كان يحمل إلهه معه بعيداً في خلوته، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته. ثم عدا على الإسلام آخرون كالنتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره. أتى عدو هؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم، ويكشف لهم قبح سيرهم؛ فقالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم، أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة. وهملوا كثيراً من أعوانهم أن ينتظموا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسراييله ليعُدوا من قبيله، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبيغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه. ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين. زعموا الدين ناقصاً ليكملوه، أو مريضاً ليعملوه، أو متداعياً ليدعموه، أو يكاد أن ينقض ليقيموه.

« نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفة الوثنية، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه. لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره. والغوغاء عون القائم، وهم يد الظالم؛ فخلقوا لنا هذه الاحتفالات، وتلك الاجتماعات، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة، وأركس الناس في الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول. ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يُقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشئون العامة، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فُرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم؛ ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه؛ وأن ما يظهر من فساد الأعمال؛ واختلال الأحوال، ليس من صنع

الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه. ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يُعينهم على ذلك، وفي الموضوعات والضعاف ما شَدَّ أزرهم في بث هذه الأوهام. وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلّين، وتعاون ولادة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مَثْبُطًا للعزائم، وغُلًّا للأيدي عن العمل. والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى. أمورٌ إذا اجتمعت أهلكت. فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم، كما يقال.

«هذه السياسة، سياسة الظلمة وأهل الأثرة، هي التي رَوَّجت ما أدخل على الدين بما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات... فجُلَّ ما تراه الآن بما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام، وإنما حِفْظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلاً منها حرّفت عن معانيها. ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذي ذكرته وعدّوه ديناً. نعوذ بالله منهم وما يفترون على الله ودينه. فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام وإنما هو شيء آخر سمّوه إسلاماً»^(١).

مذهب المتأخرين من المسلمين:

هذه الحال التي صوّرها الشيخ محمد عبده أدّت إلى ذبوع مبادئ متناقضة نشرها أصحابها على أنها من الإسلام وأنها بعض ما أمر به الله ورسوله. من هذه المبادئ مذهب الجبرية الذي صوّره المتأخرون تصويراً يخالف ما جاء في القرآن. قد رأيت تصوير القرآن لهذا المذهب فيما سبق. أمّا أولئك المتأخرون فدعوا إلى القعود والاستسلام، وقالوا إن العيش ليس بالسعى ولا التدبير، وإنما هو بالرزق وبالتقدير، دون أن يكون لعمل الإنسان فيه فضل. وهذه جبرية مخطئة أتاحت لبعض أهل الغرب أن يتهم الإسلام بها باطلاً من غير حق. ومن هذه المبادئ مذهب ازدياء المادة وعدم الأخذ منها بأيّ نصيب. وهذا مذهب الرواقين اليونانيين، وهو مذهب انتشر في بعض العصور عند طوائف من المسلمين مع مخالفته لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الدُّنْيَا﴾. ومع هذه المخالفة كان لهذا المذهب أدب مترامي الأطراف في العصر العباسي وما بعده، والقرآن إنما يدعو إلى قصد السبيل؛ فلا يرضى هذا الحرمان، كما أنه لا يرضى الإباحية التي زعم إيرفنج أنها غمست المسلمين في الترف وصرفتهم عن الجهاد، وهوت بالأمم الإسلامية إلى حيث هي اليوم.

الإسلام والمسيحية وقصد السبيل:

ويزعم الكاتب الأمريكي أن المسيحية تدعو إلى الطهر والإيثار على نقيض ما يتقوله هو على الإسلام. ولست أريد أن أوازن بين الإسلام والمسيحية في هذه المسألة، لأنها فيها متفقان غير مختلفين. وكثيراً ما تجرّ الموازنة إلى جدل وتنازع لا خير للمسيحية ولا للإسلام فيه. لكني ألا حظ، وأقف عند الملاحظة، أن بين سيرة عيسى عليه السلام وما ينسب إلى المسيحية، من دعوة إلى الرواقية والإمعان في الزهد، اختلافاً بيناً. فلم يكن المسيح رواقياً؛ بل كانت أولى معجزاته أن أحال الماء خمرًا في عرس «قانا الجليل» حيث كانوا مدعوًا، وحيث أراد ألا يُحرمَ الناس الخمر بعد نفادها. وهو لم يكن يأبى دعوة الفريسيين إلى مآدبهم الفخمة ولا كان يأبى على الناس أن يستمتعوا بأنعم الله. وسيرة محمد في ذلك أشدَّ إمعاناً في قصد السبيل. صحيح أن عيسى كان يدعو الأغنياء إلى البرّ بالفقراء ومحبتهم من غير مَنْ. والقرآن في هذا وفي الدعوة إليه أبلغ ما عرف البشر. وقد تلا القارئ من ذلك عند الكلام عن الزكاة وعن الصدقة، ما يغنينا عن معاودة القول فيه.

من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ:

وحسبنا ردًّا على إيرفنج وأمثاله أن القرآن دعا إلى قصد السبيل في كل شيء. بقيت العبارة الأخيرة من كلام إيرفنج: هذه العبارة التي يعيرنا الغرب بمثلها على حين هي عار الغرب ووصمته وجرثومة القضاء على كبريائه وعلى حضارته. يقول إيرفنج: «إن بقاء الهلال حتى اليوم في أوروبا، حيث كان يومًا ما بالغا غاية القوة، إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها. ولعل الهلال باق ليكون دليلاً جديداً على أن. «مَنْ أَخَذَ بالسيف فبالسيف يؤخذ».

«من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ»، هذه آية الإنجيل يوجهها إيرفنج باسم المسيحية إلى الإسلام. يا عجباً! لعل لإيرفنج من العذر أنه قالها منذ قرن مضى حيث لم يكن الاستعمار الغربي في تعبيرنا، المسيحي في تعبيره، قد بلغ من الشره والجشع ومن الأخذ بالسيف ما بلغ اليوم. ولكن المارিশال اللّنبى، الذى استولى على بيت المقدس في سنة ١٩١٨ باسم الحلفاء، قد قال مثل هذه العبارة إذ نادى عند هيكल سليمان: «اليوم انتهت الحروب الصليبية». وقال الدكتور بيترس سميت في كتابه عن سيرة المسيح: «إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها». ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين، وإنما نجح بمجهود اليهود الذين سخرهم ليحققوا حلم إسرائيل القديم فيجعلوا أرض المشرق وطناً قريماً لليهود.

الإسلام لم يأخذ بالسيف:

«من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ». لئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم لى أشد ماتكون صدقاً اليوم على أوروبا المسيحية. أما الإسلام فلم يأخذ بالسيف، ولن يؤخذ لذلك بالسيف. وأوروبا المسيحية قد أخذت بالسيف في العصر الأخير إمعاناً في الإباحية والترف مما ينسب إيفرنج باطلاً للإسلام والمسلمين، أوروبا المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغول والتتار حين اتشحو ظاهراً برداء الإسلام ثم فتحوا الممالك دون أن يبعثوا بتعاليم الإسلام فيها، فحققت عليهم وعلى المسلمين الكلمة، وكان هذا التدهور والانحلال الذى أصاب الشعوب الإسلامية. وأوروبا المسيحية اليوم أقل فضلاً من أولئك التتار والمغول. فالممالك التى فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت في الإسلام حين رأت عظمتة وبساطته. أما أوروبا فلا تغزو لتنتشر عقيدة ولتدعو إلى حضارة. إنها هى تريد استعماراً، وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطية هذا الاستعمار. لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوربية لأنها دعاية غير مخلصه. وهى لم تنجح ولن تنجح في الأمم الإسلامية خاصة، لأن عظمتة الإسلام وبساطته وأخذة بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملاً في النجاح بين أبنائه.

«من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ» هذا حق. وهو إن انطبق على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا الممالك وليستعمروا لا ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم، هو اليوم أشد انطباقاً على هذا الغرب الذى يغزو ويفتح ليدل الشعوب ويستعمرها. فأما المسلمون الأولون من عهد النبى ﷺ وخلفائه ومن جاءوا بعدهم فلم يغزوا للفتح والاستعمار، وإنما غزوا دفاعاً عن عقيدتهم حين هددتها قريش وحين هددتها العرب، ثم حين هددتها الروم وهددتها الفرس، وهم في هذا الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم؛ فلا إكراه في الدين. وهم في هذا الغزو لم يقصدوا إلى الاستعمار، فقد ترك النبى ﷺ ملوك العرب وأمرائها على إماراتهم وممالكهم؛ إنما أرادوا حرية الدعوة للعقيدة. ولما كانت العقيدة الإسلامية قوية بالحق الذى تنادى به، قوية بأنها لا تجعل فضلاً لعربى على عجمى إلا بالتقوى، وبأنها لا تجعل لغير الله على الإنسان سلطاناً، أسرع إلى الانتشار في ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة إلى الانتشار. فلما جاء المتأخرون ممن دخلوا في الإسلام وغزوا للفتح وأخذوا بالسيف أخذوا من بعد ذلك بالسيف. لكن الإسلام لم يأخذ بالسيف ولن يؤخذ بالسيف. هو لم يأخذ بالسيف شيئاً قط، بل استولى على العقول والقلوب والضمائر بقوة سلطانه. لذلك تعاقبت على أممه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها، فلم يغير ذلك من إسلامها ولا غير من إيمانها. وما تزال أوروبا اليوم تحكم الشعوب الإسلامية وتنحكم فيها، ولن يغير ذلك من إيمانها بالله شيئاً. فأما الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيبرهم، كى تصدق عليهم كلمة الإنجيل، أن يؤخذوا بالسيف جزاءً وفاقا.

عصبة الأمم الإسلامية:

ردّ النبي ﷺ الأمراء إلى إماراتهم والملوك إلى ممالكهم. ولقد كانت بلاد العرب في آخر عهده عصبة أم عربية إسلامية، ولم تكن فيها مستعمرة خاضعة لمكة أو ليشرب. كان العرب يومئذ جميعاً سواسية أمام الله في إيمانهم المتين به وكانوا جميعاً يداً واحدة على من اعتدى عليهم أو حاول فتنهم عن دينهم. وظلت الأمم الإسلامية من بعد ذلك وإلى عهد الإنحلال عصبة أمم إسلامية، مقرر الخليفة فيها هو مقرر العصبة. لم تستأثر دار الخلافة بالسلطة الروحية ولا استأثرت بالعلم ونوره؛ بل كانت كل الأمم الإسلامية لاتعرف سلطة روحية غير أمر الله. وكانت العواصم الإسلامية كلها عواصم للعلم والفن والصناعة؛ وظلّ ذلك شأنها حتى تغير المسلمون للإسلام، وأنكروا مبادئه الكريمة، ونسوا أخوة المؤمنين، ونسوا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. هنالك غلبت عليهم الأثرة. وهنالك لعبت السياسة المدمرة أدوارها فصار السيف حكماً ومن يأخذ بالسيف قبالسيف يؤخذ. لذلك نهضت أوروبا المسيحية منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى حياة روحية جديدة، ربما كانت تفيد العالم حقاً لولا أن أسرع إليها الفساد الذي لم يكن منه بدٌ بسبب تفرق المسيحية شيعاً. على أنها في فترة النهوض هذه واجهت الأمم الإسلامية التي نسيت الإسلام فأخذتها بالسيف وظلّت ممعنة في أخذها به، ثم جعلته بينها وبين الأمم الإسلامية حكماً. ومتى حكم السيف ققل على العقل وعلى العلم وعلى الخير وعلى المحبة وعلى الإيمان بل على الإنسانية نفسها العفاء.

وحكم السيف العالم اليوم هو سبب هذه الأزمة الروحية والنفسية التي يجتازها العالم ويثن من هوها. وقد آمنت الدول التي تحكم العالم بالسيف أثناء الحرب الكبرى الماضية، أي منذ عشرين سنة، بهذه الحقيقة فأرادت أن تقرّ حكم السلام في العالم، وأقامت عصبة الأمم لتحقيق هذه الغاية. وعهدة هذه العصبة تتلخص كلها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

روح السلام في العالم:

لكن روح السلام لم تسد العالم بعد؛ لأن أساس الحضارة الغالبة فيه هو الاستعمار؛ الاستعمار القائم على أساس القوميات وتنافسها ومحاولة كل دولة قويّة استغلال الدول الضعيفة. ومن حق كل أمة مغلوبه على أمرها، بل أول واجب عليها أن تعمل لتحطيم نير الغالب. ولذلك كان الاستعمار

(١) سورة المجرات آيتا ٩ و١٠.

بذرة الثورة والحرب ونواتها. فما بقي الاستعمار فلن يكون للسلام القلب ولن تضع الحرب أوزارها إلا ظاهراً، وستظل الأمم ينتظر بعضها إلى بعض نظرة التوجس والحذر، بل نظرة التريص للاغتيال. وأنى يكون سلام وهذه النفسية باقية! إنما يكون السلام يوم يغير الناس في مختلف أمم الأرض ما بأنفسهم، ويوم يؤمنون بالسلام إيماناً حقاً، ويقومون على أساسه تعاليمهم، ويجمعون أمرهم بإخلاص على الوقوف في وجه كل محاول تعكير صفوه.

وإنما يكون ذلك يوم لا يكون الاستعمار أساس حضارة العالم، ويوم يرى الناس جميعاً في مختلف بقاع الأرض أن واجبهم الأول أن يُعين قوتهم ضعيفهم، وأن يرحم كبيرهم صغيرهم، وأن يهذب عالمهم جاهلهم وأن ينشروا لواء العلم في نواحي الأرض جميعاً، حرصاً على أن يسعد الناس به، لا على أن يُتخذ أداة لاستغلال الشعوب باسم العلم، وباسم الصناعة التي تستفيد من العلم. يوم يؤمن العالم كله بهذا المبدأ، ويوم يشعر الناس جميعاً بأن العالم كله وطن لهم وأتهم جميعاً إخوة يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه - يومئذ يسود بين الناس التسامح وتسود بينهم المودة، ويومئذ يتخاطبون بلغة غير التي يتخاطبون اليوم بها، ويتبادلون الثقة فيما بينهم وإن يعد بينهم المزار، ويعملون الخير جميعاً لوجه الله؛ ويومئذ تنتفي الخصومة والبغضاء، وتعلو كلمة الحق ويسود السلام الوجود كله، ويرضى الله عن الناس ويرضون عنه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

السمو في التسامح أساس السلام:

أرأيت في باب التسامح أفسح من هذا الأفق!! من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، لافرق بين المؤمنين ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام على حقيقتها من غير تشويه من اليهود والنصارى والصابئين^(٢).

(١) سورة البقرة آية ٦٢.

(٢) روى الطبري في تفسير هذه الآية: أن الذين آمنوا هم الذين صدقوا رسول الله، والذين هادوا هم اليهود وإنما سماوا اليهود من قولهم إنا هدنا إليك أي تبنا. والنصارى هم أتباع عيسى، وتسميتهم النصارى هي في قول نسبة إلى الناصرة وهي القرية التي ولد بها عيسى بفلسطين وفي قول آخر لقول عيسى: من أنصاري إلى الله فسمي أنصاره نصاري، والصابئون هم في رأي: الذين يعبدون الملائكة.

آخر: قوم يقولون لا إله إلا الله وليس لهم كتاب ولا نبى ولا عمل إلا قول لا إله إلا الله. ثالث: أن الصابئين لادين لهم. وفسر ابن جرير الآية بأنه تعالى يعني بقوله ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من صدق وأقر بالبعث بعد الممات يوم القيامة وعمل صالحاً فأطاع الله فلهم أجرهم عند ربهم. أى فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم وأما قوله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ فإنه يعني به جل ذكره، لا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم ما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده. وقد أورد ابن جرير بعد ذلك أن هذه الآية نزلت في نصارى هندوا سلمان الفارسي إلى دينهم وذكر له أحدهم أن نبيا سيظهر في بلاد العرب ودله على أمارات=

ويقول جل شأنه: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١).

أين هذا مما يسود العالم اليوم باسم الحضارة الغربية، من تعصب للقومية وللدين وما يجره هذا التعصب من حروب وكوارث!

حياة محمد ﷺ وسموها:

هذا الروح السامي في تسامحه هو الذي يجب أن يسود العالم إذا أريد أن تستقر في العالم كلمة السلام ليسعد الناس به. وهذا الروح هو الذي يجعل كل دراسة لحياة من أوحى الله هذا الكلام إليه، دراسة علمية خالصة لوجه العلم وحده، جديرة بأن تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تلتهمسها. وكل تعمق في هذه الدراسة يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لاسبيل إلى تعليلها تعليلًا علميًا، ثم إذا مباحث علم النفس تفسرها وتجلوها واضحة للمتعللين. فحياة محمد ﷺ كما رأيت، حياة إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح. أتى سموّ في الحياة كهذا السموّ الذي جعل حياة محمد ﷺ قبل الرسالة مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به، تضحية استهدفت حياته من جرائم الموت مرّات، فلم يصدّه عنه أن أغراه قومه، وهو في الذروة منهم حسبًا ونسبًا، بالمال وبالمك وبكل المغريات!

بلغت هذه الحياة الإنسانية من السمو ومن القوة ما لم تبلغه حياة غيرها، وبلغت هذا السموّ في نواحي الحياة جميعًا. وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون من أزلّه إلى أبده، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة! ولولا هذا الاتصال، ولولا صدق محمد ﷺ في تبليغ رسالة ربه،

= نبوته ونصح له أن يتبعه إن لحقه. فلما أسلم سلمان وذكر للنبي ﷺ أمر هؤلاء النصارى قال له النبي ﷺ: هم يا سلمان من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان فأنزله الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الخ... وفي رأى: أن الله نسخ هذه الآية بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لكن ابن جرير يضيف: إن الذي قلنا من التأويل الأول أشبه بظاهر التنزيل لأن الله جل ثناؤه لم يخص بالاجر على العمل الصالح مع الإيمان بعض خلقه دون بعض منهم. والخبر بقوله من آمن بالله واليوم الآخر عن جميع ما ذكر في أول الآية. وربما أمكن القول تأييداً لرأى ابن جرير في تأويل الآية: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أنها إنما تنصرف إلى المسلمين الذين يبتغون غير الاسلام ديناً بعد أن ولدوا في الاسلام أو آمنوا به. فأما من ولد غير مسلم ولم تبلغه رسالة الدعوة الإسلامية على حقيقتها من غير تشويه فثأته شأن الذين سبقوا رسالة محمد ﷺ أوعاصروه ولم يعرفوا رسالته على حقيقتها (راجع تفسير الطبري الجزء الأول صفحة ٢٥٣ إلى ٢٥٧).

(١) سورة آل عمران آية ١٩٩.

لرأينا الحياة على كر الدهور تنفى مما قال شيئا. لكن ألفا وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد ﷺ عن ربه آية الحق والهدى. وبحسبنا على ذلك مثلا واحداً نضربه: ذلك ما أوحى الله إلى محمد ﷺ أنه خاتم الأنبياء والمرسلين. انقضت أربعة عشر قرناً لم يقل أحد خلافاً إنه نبي أو إنه رسول رب العالمين فصّقه الناس قام في العالم أثناء هذه القرون رجال تسنّموا ذروة العظمة في غير ناحية من نواحي الحياة فلم توهب لأحدهم هبة النبوة والرسالة. ومن قبل محمد ﷺ كانت النبوات تتواتر والرسل يتتابعون يُنذِر كل قومه أنهم ضلّوا ويردهم إلى الدين الحق، ولا يقول أحدهم إنه أرسل للناس كافة أو إنه خاتم الأنبياء والمرسلين، أمّا محمد ﷺ فيقولها فتصدّق القرون كلامه. ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين.

وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه من هذا البحث، وأن أكون قد مهّدت به السبيل إلى مباحث في موضوعه أكثر استفادة وعمقا. ولقد بذلت من الجهد في ذلك ما وسعته طاقتى ومايسره الله لى. ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مِمَّا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

تقدير وشكر

نوهت، في آخر الطبعة الأولى لهذا الكتاب؛ بما بذله لي المغفور له محمد طلعت حرب باشا، وكان يومئذ مدير بنك مصر وشركاته، من مختلف صور العون، فكان له فضل معاونتي أكبر المعاونة في الإسراع إلى إصدار الكتاب وفي أن أجعل من نسخ تلك الطبعة العشرة الآلاف ألفاً للجمعية الخيرية الإسلامية. ونوّهت كذلك بتأنيق المرحوم محمود بك خاطر مدير مطبعة مصر يومئذ تأنيقاً أظهر الكتاب لقراءته في خير ثوب له. وذكرت معاونة المرحوم الأستاذ عبدالرحيم محمود المصحح بدار الكتب في تصحيح الكتاب وضبط الأعلام والآيات فيه، كما ذكرت ما للأساتذة الخطاطين محمد حسنى، وسيد إبراهيم، والمرحوم مصطفى بك غزلان من فضل في تنسيق صحفه الأولى، وما للأساتذة إبراهيم الأبيارى، وعبدالحفيظ شلبى والشيخ أحمد عبدالعليم البردونى، وعلى أحمد الشهداوى، المصححين بدار الكتب، من مجهود في وضع فهرسه. وأشارت إلى الأستاذ على فودة الذى كان عونى وعون الأستاذ عبدالرحيم محمود في التصحيح. واعتذرت لسائر من عاونونى عن عدم ذكر أسمائهم مخافة أن يجنى النسيان على بعضهم، وكررت الشكر لهؤلاء جميعاً حين صدرت الطبعة الثانية.

وقد تواتر العون منذ ظهور الطبعة الأولى إلى أن تمت الطبعة الثانية من كثيرين لا أنسى لهم فضلهم. فقد تفضل الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى المراغى وكان يومئذ مدرساً بكلية اللغة العربية بالأزهر، فراجع الكتاب في نسخته الخاصة وبعث بها إلىّ وعلى هوامشها بعض ملاحظات لغوية أخذت بالكثير منها في الطبعة الثانية. كذلك أرسل إلىّ غير واحد مثل هذه الملاحظات، فأعرتها ما هى جديرة به من العناية. وأرسل إلىّ بعض الأصدقاء مؤلفات لهم راجعتها، واستعنت بها. من ذلك كتاب صديقى الفلسطينى الأستاذ إسعاف النشاشيبي (الإسلام الصحيح). ومنها كتابان للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي، أحدهما (مفتاح كنوز السنة) الذى ترجمه عن المستشرق فنسنت ثم أكمله، والآخر (تفصيل آيات القرآن الحكيم) الذى وضعه على نظام المستشرق جول لا بوم. وهذا الكتاب الأخير جم الفائدة لكل من أراد الرجوع إلى القرآن في مباحته؛ فهو يجمع ما جاء في الكتاب في كل موضوع جمعاً دقيقاً نظامه غاية الدقة. وقد رجعت فيها خلا ذلك إلى كتب أخرى أضفتها إلى سجل المراجع.

ومنذ بدأت الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب رأيت رجال الدار جميعاً يبدون من العناية بالكتاب ما لا يبدى إنسان أكثر منه لو أن الكتاب كان كتابه. كان ذلك شأن مدير الدار يومئذ الأستاذ

محمد (بك) أسعد براده، ومدير المطبعة الأستاذ محمد نديم، وشأن القسم الأدبي كله بدار الكتب برئاسة المرحوم الأستاذ أحمد زكي العدوى. وكم من مرة شاركني رجال هذا القسم الأدبي في تحقيق بعض مسائل اختلفت عليها كتب الحديث وكتب السيرة، كى تصل إلى غاية ما يستطاع من الدقة والضبط، وكم من مرة اشتركنا في تحقيق لفظ من الألفاظ، أو تركيب من التراكيب من حيث اللغة وعلومها، لتتفى كل دخیل على الكتاب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. والقسم الأدبي هو الذى وضع من هوامش الكتاب التنبيه إلى مواضع الآيات من سور القرآن، وشرح بعض الألفاظ اللغوية التى رآها فى حاجة إلى الشرح.

وقد تفضل المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فاطلع على ما جد فى الطبعة الثانية من فصول.

أما العناية بالطبع وإخراج الكتاب لقرائه على ما رآوه من دقة وتأنق فيرجع فضلها إلى الأستاذ محمد نديم مدير المطبعة وإلى أعوانه من رجال الفن فى الطباعة. وهم فى ذلك إنما يعملون بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن العبد إذا عمل عملاً أحبَّ الله أن يُتقنه».

ورأيت حقاً على، عند الطبعة الثالثة، أن أضعاف الشكر لرجال دار الكتب وللقائمين على مطبعتها. فقد حالت مشاغلى دون الاشتراك فى هذه الطبعة بأكثر من مراجعة التجارب الأخيرة والإذن بالطبع. فأما ما خلا ذلك من وضع عناوين الصفحات ومن المزيد فى دقة الضبط، فالفضل فيه لهم، ولما بينى وبين رجال الدار جميعاً، وعلى رأسهم مديرها يومئذ الدكتور منصور فهمى باشا من مودة صادقة.

لذلك فإن كل شكر أبذله لهم وكل تقدير منى لجميلهم دون مجهودهم قدراً فليتول الله جزاءهم على حسن صنيعهم. وعنده جل شأنه حسن الجزاء.

واليوم، ولناسبة هذه الطبعة الرابعة التى طبعت من جديد بمطبعة مصر، أرى حقاً على أن أشكر للأستاذ يوسف بهجت مدير المطبعة وللأستاذ محمد إبراهيم عثمان رئيسها ولجميع رجال مطبعة مصر ما بذلوا من همة وعناية، حتى خرج الكتاب فى هذا الثوب القشيب من الدقة وجمال الطبع وأناقته. كما أشكر للأستاذ أحمد عبدالعليم البردوني معاونته الصادقة فى ضبط فهرس هذه الطبعة.

وفى هذه الطبعة الخامسة يسرنى أن أشكر للدكتور سيد نوفل مدير الإدارة التشريعية بمجلس الشيوخ دقة المراجعة لتجارها ولتجارب الطبعة الرابعة.

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا للخير ولحسن أداء واجبنا فى الحياة.

محمد حسين هيكل